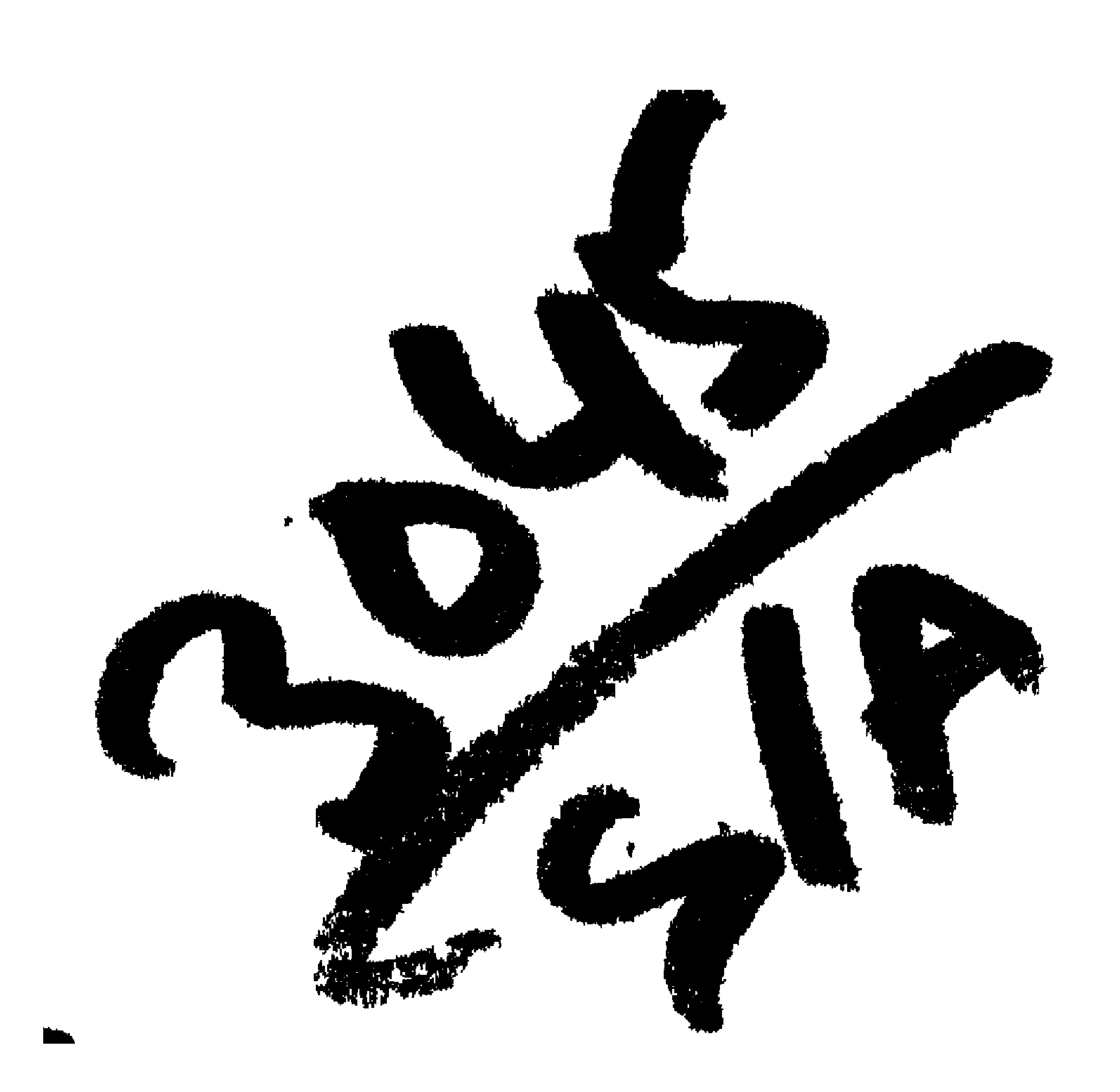



٢٣
الروائع
ولي الدين يكن
فصول منتخبة
المطبعة الكاثوليكية - بيروت

وليّ الدين يكن

فصول منتخبة

درس ومنتخبات

بقلم

فؤاد إفرام البستاني

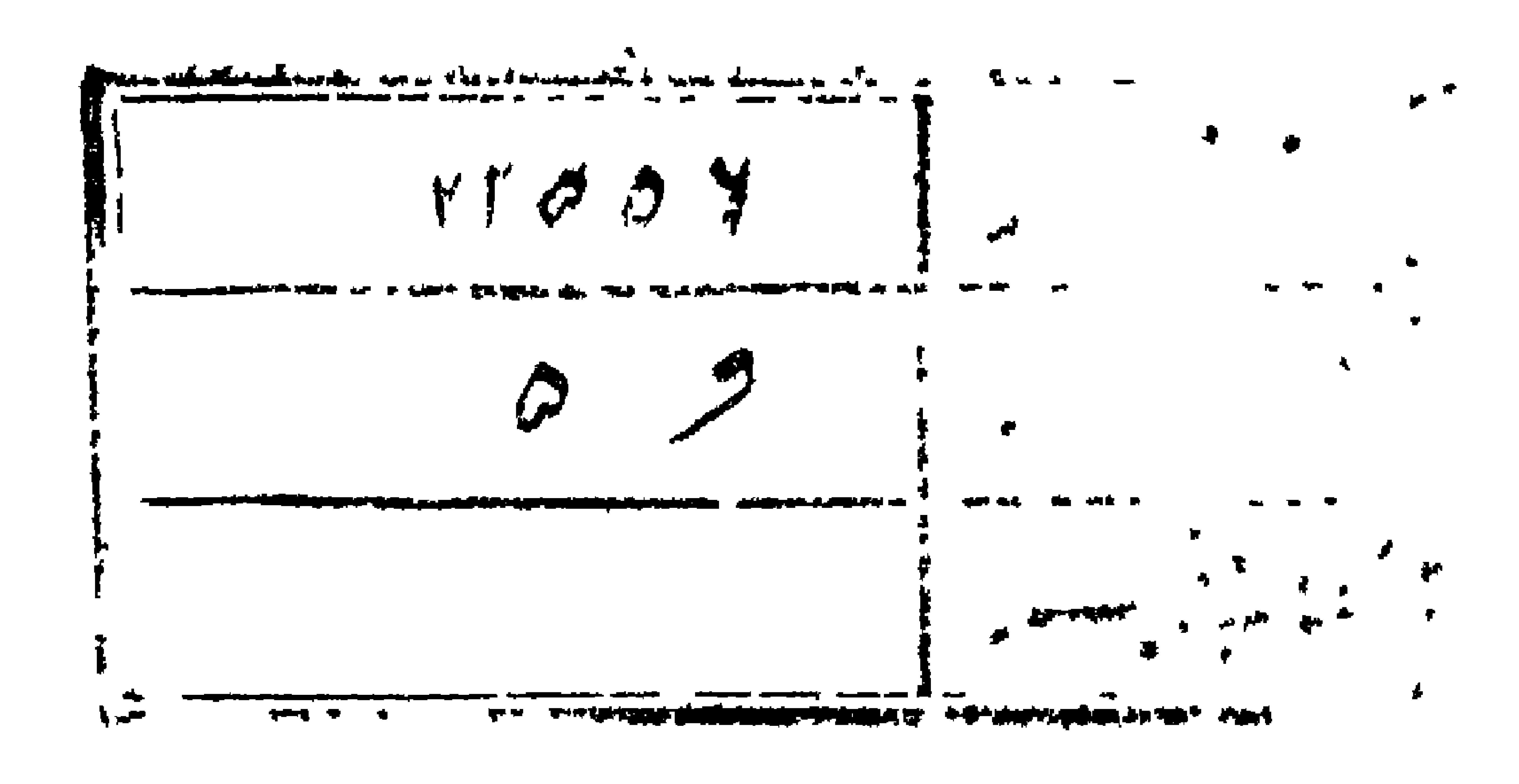
ستاد الآداب العربية في كليّة القديس يوسف

جميع الحقوق محفوظة للمطبعة

لمطبعة الكاثوليكية . بيروت

١٩٢٩

٢١ — ١


٧٢٥٥٤
٥٩

ولي الدين

١٨٧٣ – ١٩٢١

« ان اعرض عن مقالي اهل زماني ، فغداً يب[illegible] »

(ولي الدين يكن)

ان في البشرية نفوساً مُترعة لا تفيض الّا اذا تألمت ، وقلوباً طافحة لا تسيل الّا اذا جُرحت. من هذه النفوس الشاعرة كانت نفس ولي الدين ، ومن هذه القلوب الحسّاسة كان قلب ولي الـدين ا جرّعتـه الحياة كأس لآلام حتى الثالة ، وهبت به عواصف الطغيان حتى مهاوي الظلم . فشعر بالشقاء على جميع وجوهه ، وشعر بالحـاجة الى الحريـة في جميع مواطن الاستبداد. وكان له من مخيلته الواسعة ، وبيانه الجذّاب ، ما رفع ذاك الشعور الى قمة الفن الرائع ، فبـدا متجسماً باسلوب شخصي ومـذهب طريف. فكان شاعراً في كل مآتي حياته ، شاعراً في شخصيته البـارزة من خلال آثاره جميعها

حياته

شبابه (١٨٧٣ – ١٨٩٦)

اسرته – مولده

هو محمد ولي الـدين بك ابن حسن سري باشا ، ابن ابراهم باشا يكن . كان جدّه ابن اخت محمـد علي باشا الكبير ، مؤسس الـدولة المالكة في مصر ، فحمل لقب «يَكَن» ، وهو كلمة تركية معناها «ابن

الاخت » ، واورثها وُلده من بعده . والعائلة من اشرف البيوتات التركية عامة والمصرية خاصة ، اشتهرت سابقاً بابراهيم باشا المذكور ، واخيه محمد باشا ؛ وكان الاول سر عسكر اليمن ، والثاني سر عسكر الحجاز في عهد محمد علي ؛ واشتهرت بعد ذلك بعدد غير قليل من كبار الساسة المصريّين .

اما ولي الدين فوُلد بناحية السليمانية من الاستانة سنة ١٨٧٣ . وكانت امه من عائلة شريفة ايضاً ، وهي بنت احد امراء الجراكسة . فاكتنفه نبل الاصل من الطرَفين .

في مصر : وفاة ابيه (١٨٧٩) – دروسه

ولم يلبث والد وليّ الدين ان قدم الى مصر مع عائلته . وعهد في تعليم ولده الى معلم خاصّ اخذ يلقّنه مبادئ العربية . على ان الاب لم يتمتّع طويلًا بنجابة ابنه ، فتوفي والولد لا يتجاوز الست سنوات . فكفله ، واخوتَه ، عمهم علي حيدر باشا يكن ، ناظر المالية المصرية اذ ذاك . وكان الخديوي محمد توفيق باشا قد أسس في عابدين مدرسة خاصة لتعليم ابنيه وبعض ابناء امراء مصر ووجهائها ، وعيّن بها الاساتذة من رجال العلم والادب المشهورين ، وسمّاها « مدرسة الانجال » . فدخلها ولي الدين واقام فيها مدة يتلقّى ، مع العربية والتركية ، مبادئ الانكليزية والعلوم . وشاء درس اللغة الفرنسوية فطلبها في مدرسة مارسيل العالم الفرنسوي ، ثم دخل المدارس الاميرية . وما زال يتابع دروسه ، بعد خروجه من دور التعليم ، حتى اتقن العربية والتركية ، واحكم الفرنسوية ، والمّ بالانجليزية واليونانية .

كتاباته الاولى – اولى وظائفه

وكان له ولع فطري بالكتابة ، فانشأ ، وهو في دون العشرين ، يحبّر المقالات القصيرة في الجرائد المصرية ، تارة يخوض في الادب ، وطوراً في السياسة ، وحيناً في الاجتماع . اما الجرائد التي خصها بمقالاته الاولى فهي « القاهرة » لمحمد بك عارف المارديني ، « والنيل » لحسن حسني باشا الطويراني الذي اخذ عنه ولي الدين علم المنطق ؛ ثم اتفق مع يوسف بك فتحي واصدرا جريدة « القياس »[1] . وكان بعض انسبائه ، ومنهم شفيق بك منصور يكن ، يريدون ان يصرفوه الى وظائف الحكومة عن طريق الصحافة التي قد تهوّره ، وهو فتى بعد ، فشغلوه في خلال ذلك ، اولًا بوظيفة في نيابة مصر الاهلية ، ثم بالقسم الاجنبي في المعيّة السنية سنة ١٨٩٣

بين الاستانة ومصر (١٨٩٦–١٩٠٢)

في الاستانة

كانت الاستانة مسقط رأس ولي الدين فاحبها كثيراً وحنّ اليها طويلًا . وكانت اولى زياراته لها ، بعد غربته ، في سنة ١٨٩٦ ، وقد انعم عليه السلطان عبد الحميد بالرتبة الثانية . وكان فيها عمه محمد فائق بك يكن ، احد اعضاء مجلس الشورى ، فاقام عنده نحو السنة ، اغنى مخيلته ، في اثنائها ، بمناظر فروق الفتانة التي سوف يتذكّرها في جميع مواقفه ، سعيداً كان فيهينها او تعيساً فيبكيها .

---

١) المقتطف : ابريل ١٩٢١ ، ص ٢٧٥–٢٧٦

في مصر: جريدة « الاستقامة »

في سنة ١٨٩٧ ، عاد الى مصر ، وقلبه يلتهب غيرة على اصلاح بلاده ، وتقويم ما رآه من الاعوجاج في سياسة العاصمة ، فانشأ فيها جريدة دعاها « الاستقامة » واندفع يبسط فيها بجرأة واخلاص ، كلّ ما كان يراه صائباً من الآراء ، ونافعاً من الاقتراحات . ولكن تلك المقالات كانت اخلص من ان لا تثير حفائظ الباب العالي ، فمنعتها الحكومة في ولاياتها . فاوقفها مرغماً ، وودّعها بقصيدة رائعة نشرها في جريدة « المشير » سنة ١٨٩٧ ، منها :

فمن مبلغٌ عني الغضابَ الأُلى جنوا ... باني امروءٌ ما ان اخاف غضابا
اذمّ فلا اخشى عقاباً يُصيبني ، ... وامدح لا ارجو بذاك ثوابا !
على مَ أُحابي معشراً انا خيرُهم ، ... ومثلي ، اذا حابى الرجال ، يُحابى ؟

....

ولما غدا قولُ الصواب مذمّماً ، ... عزمتُ على ان لا اقول صوابا
فجافيتُ اقلامي ، وعفت «استقامتي» ... ورحت ارجّي للسلامة بابا ! (١

على ان احتجاب جريدته لم يمنعه الخوض في السياسة العثمانية ، فتابع الكتابة في جريدة « المشير » المذكورة ، وجريدة « المقطم » ، وجريدة « القانون الاساسي » لمحمد قدري افندي ، وكان يصدرها بالعربية والتركية

في الاستانة ايضاً

وفي السنة التالية ، سافر الى الاستانة مرّةً اخرى ، فوُظف فيها عضواً في الجمعية الرسومية الجمركية . ولم يلبث ان انتقل منها الى

---

١) ديوانه ، ص : ٤١

عضوية مجلس المعارف الاعلى . على ان مـاضيه كان اشدّ سوادًا في نظر رجال عبد الحميد من ان يعتقدوا فيه الاخلاص لذاك العرش القـائم على أُسس الاستبداد . فلم يزالوا يبثون عليه العيون حتى ظنوا انه على صلـة بالاحرار القائمين خارج السلطنة ، وان عنده كتباً واوراقاً من شأنها النيـل من شخص عبد الحميد ومن حكومته

في المنفى (١٩٠٢ــ١٩٠٨)

في سجن الاستانة

فارسل شفيق باشا ، ناظر الضـابطة ، من يفتش منزله في ٢ كانون الثاني١٩٠٢ . فروّعوا امرأته النفساء ، وامه ، واولاده الصغار ، واخذوا كل ما راق لهم من الاوراق والمستنـدات ، وتركوه حليف اليأس والاضطراب[1]

ولم تمرّ اربعة ايام حتى قُبض عليه في احد شوارع الاستـانة ، وكان ذاهباً في طلب دواء لامرأته . فأُلقي ، دون محـاكمة ، في سجن ، ثم في سجن آخر اشدّ ضيقاً من الاول .

في سيواس

وبعد ان قاسى عذاب الظلم ، وعذاب البعد عن اهل بيته ، في هذا السجن الجديد ، نُقل الى باخرة ظنها ستلقيه في البوسفور ، ولكنهـا سارت به الى حيث لم يعرف الّا بعد مدّة . فأُخبر ان الارادة السنيـة صدرت بنفيه الى سيواس ، احدى ولايات الاناضول . فوصل اليهـا يوم

---

١) تفصيل ذلك في المعلوم والمجهول ٢ : ١١-١٧

الجمعة في ١٤ شباط سنة ١٩٠٢ ، بعد سير حثيث في الاودية والجبال ، وسط العواصف وتحت الثلوج.

كل هذا واهله لا يعلمون عن مصيره شيئاً ، حتى هـدأ روعه اثر وصوله الى منفاه ، فأبرق يخبرهم ويستقدمهم اليه.

وكان من غرائب الحكومة الحميدية انها تستخـدم المنفيين في وظائفها كما تشاء ، وتنفي متوظّفيها كما تحب . وهكذا كان فـان ولي الدين المغضوب عليه ، المنفي بعيداً عن بلاد ، ما برح من ارباب الحكومة التي نفته ، فانه حالَ وصوله استلم امراً بتعيينه معاون مكتوبجي الولاية براتب شهري قدره ١٥ ليرة ذهبية كان يقبضه في حينه اذا صدرت الارادة السنية بذلك ، والا فينتظر الشهر والشهرين والثلاثة.

اقام في سيواس نحو السبع السنوات ، قاسى في خلالها ، ولاسيا في اولها ، انواعاً من العذاب العقلي تحطّ من همم الجبـابرة . وكأن القدر اراد زيادة تجاريبـه ، فجمع الى ذلك الم أضراسه ، ومرض كبير ابنائه بالحمى التيفوئيدية ، وانقطاع المواصلة مع اصحـابه المتخلفين . الا انه كان له بعض العزاء بوجود امه وامرأته واولاده معه ، وبما لاقـاه من اسباب التسلية والمؤاساة في اهل سيواس عـامة ، وفي الاجانب المقيمين فيها خاصة مما احدث في نفسه ذكرى طيبة فخلّدهـا في كتابه « المعلوم والمجهول »

واذ أُعلن الدستور ، سنة ١٩٠٨ ، خرج من ذاك المقرّ . فرجع الى الاستانة ، يتفقد شؤونها ، ويرى ما آلت اليه مدينة الجمال التي كان لها في قلبه مركز خاصّ . ولكن لم يطل الاقامة فيها بل فارقها الى مصر.

في مصر (١٩٠٨—١٩٢١)

العود الى دولة القلم

خلص ولي الدين من دولة الظلم ، فعاد الى دولة القلم ، وقد ظن ان الحظ بسم لبلاده على اثر اعلان الدستور ، فلم يغرّه هذا الامل طويلًا . وكان ينتظره في مصر اصحاب ومحبون ، فاحتفلوا به ، واقاموا له حفلة ادبية تهنئة له برجوعه سالمًا . اما هو فتابع نشر مقالاته في كبريات الجرائد « كالمقطم » ، و «الاهرام» ، و« المؤيّد » ، و« الرائد المصري » ، ومجلة « الزهور » وقد تولى مدةً رئاسة تحرير جريدة «الاقدام» لصاحبتها الاميرة الكسندره افرينوه دي فيزنيوسكا .

وكان له متسع من الوقت ، في تلك الاثناء ، فجمع تذكارات ما قاساه في السنين الغابرة ، ونشرها في مجلَّديه المشهورين باسم « المعلوم والمجهول » . وانتخب قسماً من مقالاته في المقطم نشرها بعنوان « الصحائف السود » ، ثم نشر مجموعة اخرى بعنوان «التجاريب » ، وكان قد عرّب « خواطر نيازي » فنشرها ايضاً في هذه الفترة ، وسيأتي الكلام على كل ذلك .

في الوظائف : « بسمة الزمان »

وبعد اعوام قليلة عُين في وزارة الحقّانية . فارتاح الى عمله . وظلّ في ذاك المنصب حتى اواخر سنة ١٩١٤ . فعيَّنه السلطان حسين كامل سكرتيرًا عربيًا لديوان كبير الامناء ، واحبه كثيرًا ، وانعم عليه بوسام النيل . فشعر وليّ الدين بالسعادة ، ولعلّ ذلك كان لاول مرة في حياته ! واعتبر تلك الحياة الجديدة « بسمة بسمها الزمان بعد طول عبسه » كما

كتب الى صديقه الشيخ انطون الجميل بُعيد تعيينه . ولكنه ، لكثرة ما تعوّد الشقاء ، خاف ان تحول الحوادث بينه وبين التمتع بهذه البسمة[1]

مرضه

وكان خوفه في محله . فان المرض اخذ يدبّ الى صدره ، وجعل الربو يقطع عليه انفاسه ، فينغّص ساعات نهاره ، ويقضّ مضجعه اذا شاء الاستكانة في الليل . وقد كتب الى صديقه المذكور في ١٢ شباط ١٩١٨ يصف داءه وصفاً يشفّ عما كان يقاسي جسمه من الالم ، وخصوصاً عمّا كان يُلمّ بنفسه من الجزع واليأس . قال :

« اني في يأس شديد من زوال هذا المرض . . . الذي عجز الطب عن دفعه ، وهو المسمى emphyzème (الربو) . اذا دجا الليل تكاثرت مخاوفي ، فلا يغمض جفناي فرقاً ، لاني لا اغفي اغفاءةً الا وانتبه صارخاً مذعوراً ، اذ تنقطع انفاسي ، ويشتدّ اضطراب قلبي ، وتبرد يداي ورجلاي . فاختلج مكاني ، واتلوّى تلويّ الافعى أُلقيت في النار . اريد تنفساً استعيد به ما يوشك ان يذهب عني من الحياة فلا اجده . حتى اذا بلّلني العرق ، وانهكني التعب ، عاودتني انفاسي شيئاً فشيئاً ، وذهبت النوبة على ان تعود بعد ساعة او ساعتين . ومصير هذا المرض معلوم ، وهو مذكور في كتب الطب لم يختلف فيه طبيان .

« لا ادري أمن الموت ، وما انتظر من اهواله ، يزداد جزعي ؟ وما تطلع عليّ شمس يوم الا وزادتني قرباً من قبري . وا لهفي على آمالٍ تحولت آلاماً ! ووا حسرتي على ايام عمر ما ضحكت لي مرة الّا جملت دموعي لها ثمناً ! أهذه عاقبة الصبر التي أطلت انتظارها ؟ ما أكثر ضلال الحكماء ! وما أكبر غشّ القدماء ! . . . »[2]

واذا اضفنا الى هذه الآلام الجسدية المبرّحة ، آلاماً نفسية ايسرها

١) مقدّمة ديوانه ، بقلم الشيخ انطون الجميل ، ص : ٨
٢) الكتاب المذكور ، ص ٨-٩

ناتج عن المرض ، وغيرها ناتج عن مصائب عائلية تراكمت عليه في سنيه الاخيرة : منها موت ثاني اولاده فجأة بلمس سلك كهربائي ، وهو في السادسة عشرة من العمر ؛ ووفاة والدته وشقيقته وكان يحبهما حباً شديداً[1] ؛ امكننا القول ان حياة وليّ الدين كانت مأساةً تامة ، واىامه حلقات فواجع « ما ضحكت له مرة الا جعلت دموعه لها ثمناً » !

وفاته (٦ آذار ١٩٢١)

وما زال يشتدّ عليه المرض حتى أُجبر على ترك القصر السلطاني سنة ١٩١٩ ، فانزوى في بيته ، ثم قصد حلوان مستشفياً حيث ختمت سلسلة احزانه ليلة الاحد في ٦ اذار سنة ١٩٢١ ، بعد ان ترك قطعاً من فؤاده متناثرة على الاوراق ، منها هذان البيتان وُجدا الى جانب سريره :

يا جسداً قد ذاب حتى امّحى … الّا قليلاً عالقاً بالشقاء
اعانك الله بصبرٍ على … ما ستعاني من قليل البقاءِ !

دفنه — وتأبينه

طالما تاق ولي الدين ، في مصائبه المتعدّدة ، الى رقدة يستريح الجسم فيها في « قرافة الامام » بمصر ، وفيها مدفن العائلة اليكنية . فحقق الله متمنّاه ، فدُفن في « القرافة » المذكورة بين اهله الكرام .

وبعد اربعين يوماً ، اجتمع لتكريم ذكراه فريق من اصدقائه الادباء . فاقاموا حول قبره حفلة تأبينية . وكان امل الاصدقاء كبيراً بان جمهور حملة الاقلام في مصر يلبّون دعوة هذا الواجب فيكفرون باحيائهم ذكرى ولي الدين عما لحق به من الاجحاف حال حياته . ولكن

---

١) ميّ : الصحائف ، ص ٨٩

خاب الامل ، فلم يؤبنه الا نفر قليل منهم ابراهيم رمزي ، وخليل مطران ، والشيخ انطون الجميل ، وجورج طنوس.

أوَ لم يكن وليّ الدين يتوقّع مثل هذا الاعراض حين وصف موت الادباء في الشرق ذاك الوصف البليغ ، فقال :

« يموت ادباؤنا ، وتطفأ انوار المعاني في عقولهم ، وتبقى بيوتهم خالية ، واجداثهم داثرة . . . »[1]

على انه ، وان قصّر ادباء مصر في ايفاء الفقيد حقه ، فلقد كان له من جرائد العالم العربي قاطبةً مراثٍ وتآبين . وسيكون له من ادبائنا جميعاً محبون ومريدون.

شخصيته

نشأ ولي الدين في بيت شرف واباء ، فكان شريفاً ابيا طول حياته. وكان له من لطف الحسّ ، ودقة الملاحظة ، وسرعة التأثّر ما جعله شاعراً في كل ما خطه ، سواء في ذلك النظم ، وهو شعره الموقّع ، والنثر ، وهو شعره المرسل.

وقد خصه الباري بقوّة بدنية ، في عنفوان شبابه ، وجرأة على العظائم لا يقف في وجهها حاجز كما قد يشهد ذاك الشرطي الذي اعترضه في سيره ، فعاجله وليّ الدين « بضربات كندف القطن ، فالقاه[2] » وكما قد يشهد ايضاً ذاك المتصرف وقد « اكفأه على مكتبته واهوى بين كتفيه بلكمات »[3] .

---

١) اطلب المنتخبات ص : ٢٤ ٢) المعلم والمجهول ٢ : ٣٤

٣) الكتاب المذكور ٢ : ٣٧

الا ان مقاساة الاتعاب ، وتراكم الرزايا ، وتباريح المرض اضنكت جسمه فافقدته قواه ولكنها لم تفقده جرأته ؛ وطبع الاسى على وجهه آثاره فذهب بنضارته ، ولكنه لم يذهب بظرفه وطلاقته. بل ظلّ ولي الدين، على زغم الفواجع ، لطيف المحضر ، حلو الحديث ، ظاهر التجلّد . واننا لنخطئ اذا حسبنا هذا التجلد نتيجة الاستكانة للذلّ ، او التسليم المطلق لمشيئة الله . لم يكن شيء من ذلك ، لأن شاعرنا كان اوفر عصبيّة ، واسرع تلبية لدواعي ثورات النفس ، واكثر تضجّراً من ان يدرك احدى هاتين الحالتين . انما كان تجلّده نتيجة قوة خاصة به توّهله للشعور بادقّ العواطف ، ولكنها ، في الوقت نفسه ، تضبط قلبه ان يظهر متأثّراً بتلك العواطف ؛ تبسط لديه سبل الخلاص من مأزق حرج ، ولكنها تربأ به عن طرق ابواب التذلل والاستعطاف للوصول الى تلك السبل ؛ تصوّر امامه بطريقة شفّافة هول الخطب المقبل ، ولكنها تمنحه من رباطة الجأش ما يوقفه ثابتاً تجاه ذاك الهول ، شامخاً على تراكم الرزايا ، مجابهاً صروف الدهر مجابهة القرن لقرنه . الا وهي الانفة ، ذاك السلطان الجبار الذي يسخر لارادته النفوس الكبيرة فيرفع مآتيها عن مآتي العامة ، ويسمو بعواطفها على عواطف السوقة . من هذه « الانفس الساكنة الى الاحساب الزكية » كانت نفس وليّ الدين ، فوُجدت بحكم الطبع مسخّرة لسلطان الانفة يسيّرها حيث يشاء ، على نحو ما صوّره الكاتب نفسه في مقال « الانفة » [1] .

وكان من نتيجة انفته صفة قد يستغربها الناس لاول وهلة ، وهي

---

1) اطلبه في المنتخبات ، ص : ١٦

بغضه الشديد للكبرياء . ولا عجب ! فالكبرياء أنفة زائفة او ادّعاء يقوم به ارباب النفوس المنحطة لتقليد اشهر صفات النفوس السامية . وما فتئ اصحاب الصفات الحقيقية يكرهون من يقلّدهم في صفاتهم فيظهرون بمظاهرهم ، وهم في الحقيقة خلو من ذلك . فالمخلص الحقيقي يكره المماذق ، والمتديّن الحقيقي يكره المرائي الخبيث ، والانوف الزكي الحسب يكره المتكبر عن عجب وحداثة نعمة .

اما اذا كانت الاهواء ممّا لا يضير الانفة ، ومما لا يساوي بين صاحبها ومن لا يفهمون الانفة ، فلا بأس بها ، ولا لزوم للتحفظ في اظهارها . وعليه كان وليّ الدين ، في ما خلا ما قد يمسّ أنفته ، شديد الميول مندفع الاهواء ، سواء في ذلك حبه وبغضه ، وتقرّبه ونفوره . فهو لا يتحرّج في حبّ ما يكرهه الجمهور ، ولا يتكلف في التصريح ببغض ما قد تجبره آداب المجالسة على اعتباره . فهو صادق في كل ما يقول ، مخلص في كل ما يشعر به .

وقد وافقت هذه الصراحة عنده نزوعاً طبيعيًّا الى الحرية والاستقلال ، قاده في جميع ظروف حياته الى الخروج عن المألوف فلم يجازَ بالخير في ذلك . خرج ، في ما خصّ الدين ، على عادات قومه فتزوّج سيدة مسيحية يونانية ، فآب بغضب اهله ؛ وخرج ، في ما خصّ السياسة ، على سلطانه محبّرًا المقالات ضدّ ظلمه واستبداده ، فربح السجن والنفي سبع سنوات . وخرج في ما خصّ الادب ، على قواعد النظم المقررة ، وقوالب النثر القديمة الى محيط الابتكار والطرافة فجمع عليه سخط المحافظين . ولكنه لم يكن ليبالي بكل ذلك ، وهو القائل رادًّا على من شاء تضييق حريته :

« يريدون ان اكتب ما يريدون ، وأريد ان اكتب ما اريد . »

وهكذا كان أ فقد كتبَ ما أراد لا ما ارادوا ، وهو في كل ذلك :

« يذمّ فلا يخشى عقاباً يصيبه ويمدح لا يرجو بذاك ثوابا »

« لا يبالي الثناء ، ولا يبالي الهجاء . وانما يبالي ان يصدق فيه احدهما . »

وما همّه من كل ذلك ؟ أليس له من نفسه الكبيرة جيشٌ يتقاصر عنه جيش عبد الحميد ! أوَ ليس له من ادبه غنى لا يحسب غنى الارض شيئاً الى جنبهِ ! أوَ ليس له من حرّيته وأنفته صرح تصغر امامه صروح المعالي جميعها ! كيف لا ، وهو القائل بعد ان جاز الاربعين من العمر :

تزّهدت في وصل المعالي جميعها ومن يطّلبها كاطلابي يزهدِ
وبتّ ، تساوت في فؤادي مناهجٌ تؤدّي لخفضٍ ، او تؤدّي لسؤددِ
واني في بيت صغيرٍ مهدّمٍ كأنيَ في قصرٍ كبيرٍ مشيّدِ
عفا الله عن قومٍ اتاني غدرهم فربّ مسيءٍ لم يسئ عن تعمّدِ
تركت الغنى ، لا عاجزاً عن طلابه ، وانزلت نفسي من منازل محتدي
وهذي بحمد الله مني براءةٌ فيا افق سجلها ، ويا انجم اشهدي !

وان من يصل الى هذه الدرجة من الإعراض عن ترّهات العالم فتتساوى في فؤاده المناهج المتباينة السبل حتى المعاكسة ، لحقيقٌ بان يكون شاهَدَ الحياة من قمّة انفته العالية التي الانت التجاريب من حدّتها وخففت من نشزاتها الفتية ، فاصبحت تشفق على الناس ، بعد ان كانت تزدريهم . ولكن لا تزال شفقتها ممزوجة بشيءٍ من الترفّع يدفعها الى التجرّد عمّا يلتهون بهِ من الحطام كالمال والوظائف ، والى الإعراض عن عواطفهم ، وخصوصاً عن مبادلتهم الشفقة بالشفقة . فاذا حنّت الى شيء لا يكون حنينها الى تعزية بشرية ، بل الى « دارات القرافة » فتقول :

« أحنّ الى تلك المراقــد في الثرى   ولو استطيع اليوم ، لاخترتُ مرقدي
« فــانزلت جسمي منزلًا لا يملّــه   يكون بعيدًا عن أعــادٍ وحُسَّدِ
« وما يتمنى المرّ في ظـلّ عيشةٍ   تغرّ لاحرارٍ وتحلو لاعبُـدِ ! » (١

هذا وليّ الدين بعــد ان نالت منه الخطوب والسنون ، فأثرت في اندفاعه . وأثّر فيه خصوصاً انكسار كبار اعدائه ، وفي مقدّمتهم السلطان عبد الحميد ، فلم يبقَ امامه ذاك النمر المتعطش الى شرب الـدماء ، فيحاربه الليل والنهار ويشحذ قلمه في سبيل الذود عن مظلوميه . اسقط عبد الحميد ، وتنفس العثانيون الصعداء ظانّين ان قـد انقضى حكم السوط .

وابو السّياط « بيلديزٍ » ذهبا

فالقى شاعرنا سلاحه مدّة حتى تعالاه الصدأ ، وكاد يضعف همته خلوّ ساحة النزال من المبارزين .

اما عصرٌ كان « لليث شباة وظفر » ، فقد كان لولي الدين « شبــاة وظفر » ايضاً يدافع بهما عن فروق ،

وفي العيون ازورارٌ   وفي الجوانح ذعرُ ،

حتى تقهقر الليث :

فاضطرّ للصلح رغمًا   ومن بغى يضطرّ
(واغتاله) بعدُ غـدرًا   وشيمة النذلِ غدرُ !» (٢

هذا المظهر هو احقّ مظاهر وليّ الدين بالدرس ، واشفّها عن شخصيته العجيبة . كيف لا وقد تجمّع في كتاباته هذه السياسية كل ما في عقليته من حرية في الميل ، واستقلال في الفكر ، وصدق في العاطفة ، يُقرن الى

---

١) الديوان ، ص : ٨٤–٨٥   ٢) الديوان ، ص : ٣٥–٣٦

عصبية في المزاج ، وتحمّس في الاندفاع ، ظهرت آثارهما حتى في الجمل والتعابير فغدت متقطعة الاقسام ، هائجة النبرات ، متصادمة الالفاظ ، ينبض بها القلب ألماً فيبرزها دفعات كنبضاته السريعة . اضف الى ذلك قوة في الحجة ، وبلاغة في المنطق ، واذا بك كدت تستوفي تحديد شخصية ولي الدين الادبية . فلا يبقى عليك الا معرفة مفعول مخيّلته .

وهذه القوّة لا تقلّ تأثيراً عن عقله وشعوره . فهي التي ترفع امام عينيه حجب الاسرار فيرى مواقف المظلومين ، ومصارع الابرياء . ويصوّرها بتلك البلاغة الفائقة ، وذاك الايجاز الفني . وكأن الطبيعة نفسها تساعده على النيل من النفوس الحسّاسة فتمنحه اروع ما في كنوزها من مشاهد يجعل فيها حوادث ابطاله : تمنحه الليل البهيم بما يُثيره من الفواجع البكماء ، وتمنحه الشتاء القاسي بما يحمله من الوحشة والسكون ، وتمنحه الخضمّ المضطرب بما يهيجه من الرهبة والاسى . فتجتمع له انواع الدياجي من ظلمات الليالي الى ظلمات البحار الى ظلمات القبور ، فيقضي البريء غرقاً في « خليج البوسفور في احدى ليالي الشتاء »

في ليلة ليس بها كوكبُ كانما مشرقها مغربُ
يعمي سواداً كل ما بينها فتحتها وفوقها غيهبُ » (١

ويموت « مظلوم » في « ليلة تضيع في معاقد ظلماتها انفاس المكروبين كانها ذوب الحزن او نسج الاسى . » وقد جاش البحر ، وطارت عاصفة « اخذت قطرات الغيث تسحّ على اجنحتها »(٢) ، ويخمد السمّ انفاس الفتاة

---

١) الصحائف السود ، ص : ٧٣ — اطلب المنتخبات ، ص : ١

٢) فصل كتب بالدموع — المنتخبات ، ص : ٦ و٨

البريئة « تحت ليلة من ليالي الشتاء ، متغوّرة النجوم، حالكة الجوانب»[1] ويُساق ولي الدين نفسه الى النفي « تحت ليل كأنه ظلّ الشقاء »[2]

ولا غرابة في هذه المقاربة فالظلمات تدعو بعضهـا بعضاً ، والشاعر يختار منها ما يوافق عقليَّته حتى اذا برزت له الصورة تركها ، مصقولةً او غير مصقولة ، الى غيرها من الصور المبتكرة يضعها الواحدة جنب الاخرى حتى يتكامل له المشهد ، وهو ينتقل بينهـا قفزاً لا يكاد يهتم باحكام الصلة بين الاقسام لشدَّة ما يؤثر من الالوان والتصاوير ، وقد ذكرت عنه ميّ انه قد يبرز معانيه صوراً ، كما في « غرَّد الطير » مثلاً ، فانه يكتب « غرَّد » كتابةً ويرسم « الطير » رسماً .[3]

وكثيراً ما كانت تتوسَّع المخيلة بمفاعيل سحر الالوان والتصـاوير في نفس الشاعر فتوجد منها مقارنات وتشابيه مبتكرة حتى الغرابة ، وغريبة احياناً حتى الاضحاك . فهو لا يتراجع امام تشبيه طريف ، وان خرج عن الذوق او الاحتمال ، سواء في ذلـك أكان الموقف موقف هزل ولهو ، او موقف جدّ وروعة . فبينا تراه يصوّر حالته برهبة ، وقد قُبض عليه وسيق امام المتصرّف ، اذا به يصف هذا المتصرّف بما يستضحك فيقول :

« اعوذ بالله !!! وجهٌ كاللبنة ، وعينان كالبصقتين ، ولحية كالطحلب ، وانف كالسواك . كل هذا يحمله عنق كخصر الهيفاء ، وجسد كزجاجة ملوّها صبغة اليود . . . »[4]

وبينا هو يبدي بكل جدّ ملاحظاته في اخلاق اهل سيواس ، اذا به

---

١) الصحائف السود ، ص ١٥ ٢) المعلوم والمجهول ٢ : ٥٢
٣) ميّ : الصحائف ، ص ٩٣ ٤) المعلوم والمجهول ٢ : ٢٦

يذكر نساءهم فيقول انهنّ « يمشينَ محجبات ساحبــات فضول مآزرهنّ كجَماعات الاوزّ ، او كاقطاع الغنم ... » ويتابع ذاكرًا سبب بعض عاداتهنّ : «هذا جهل لوانقلب علماً لاصبحت غربان سيواس فلاسفة . »[1]

الى غير ذلك من تعابير وتشابيه خاصة به شاء السير بهــا على اسلوب طريف حرّ مستقلّ ، مطبّقاً حريته في ميــدان الادب ؛ مما جعل خليــل مطران يقول عنه :

لمحزه شعرًا ونثرًا شواردٌ   ابت كلّ سيرٍ في طريقٍ معبَّدِ

وان هذه الشوارد ، على ما فيهــا من غرابة ، هي التي تميز تلــك الشخصية المحبوبة في ولي الدين ، فتجعله قريباً للقلوب على تباين نزعاتها ، جذّاباً للمطالعين على اختلاف رغبــاتهم ، وعلى الجملة هي التي تكوّن الكاتب الشخصي . اما مَن لا يرون فيها سوى آثار الخروج على التقليد الجاري ، فهؤلاء يصعب عليهم فهم وليّ الدين ، وقــد صعب على وليّ الــدين نفسه ان يُنير عقولهم ؛ فلم يكتب لهم . بل كأنه نظر اليهم بترفّع حين اصدر ذاك الحكم الذي صدّرنا به درسنا هذا ، والذي نؤمل ان يتحقّق ، وهو :

« ان اعرض عن مقالي اهل زماني ، فغدًا يتهافت عليه ابناؤهم ! »

آثاره

لانرى من لزوم للتمييز ، اذا تكلمنا عن آثار ولي الدين ، بين النظم والنثر . فهو شاعر في كل ما خطه : شاعر في نثره البليغ الذي لا ينقصه سوى القافية حتى يصير نظماً ، وشاعر في نظمه السهل الذي لا يفرقه عن

---

[1]) الكتاب المذكور ٢ : ١٥٦

نثره الا وقع الرويّ . حتى انـــه كان يبدأ بعض فصوله شعرًا ويـكتب سائرها نثرًا ، كما في « الصحائف السود» و « التجاريب » فيحار المطالع في اي الفنّين هو اشعر ! وهذه آثاره التي ظهرت بالطبع :

١ ـــ المعلوم والمجهول

مجلّدان ضمنهما تذكارات صباه وشبابه وما المّ به من الكوارث ، خصوصاً مـــا تعلّق بمنفاه ، مع نظرات سياسية في حالة الدولة التركية على عهد عبـد الحميد ، وآراء اجتماعية ترمي الى الاصلاح من بعض العادات . طبعا بمطبعة المعارف (مصر) في نحو ثلثمائة صفحة ، وانتهى طبع ثانيهما سنة ١٩١١

٢ ـــ الصحائف السود

مجموعة مقالات نشرت متتابعة في جريدة المقطّم اراد ان ينتقد بهـا بعض ما يقع في معترك الحياة ، واختار حين بدأ نشرها توقيع «زهير» ، ثم عدل الى اسمه . وقد استهلّ بعضها بابيات شعرية على نحو ما أشرنا اليه . طبعت بمطبعة المقتطف (مصر) سنة ١٩١٠ ، في ١١١ صفحة متوسطة

٣ ـــ التجاريب

مجموعة مقالات اجتماعية عني بطبعها فؤاد مغبغب بالاسكندرية سنة ١٩١٣ ، في ١٣٠ صفحة

٤ ـــ خواطر نيازي

او صحيفة من تاريخ الانقلاب العثماني الكبير . تأليف القول آغاس احمد نيازي الرسنه لي . عرّبه عن التركية سنة ١٩٠٩ . طبع بالقاهرة في ٢٦٠ صفحة .

٥ ـــ ديوان ولي الدين يـكن

جمعه بعد وفاته اخوه يوسف حمدي يكن . وطبع سنة ١٩٢٤ في مطبعة المقتطف والمقطم بمصر ، في ١٣٠ صفحة ، وفيه مجموع ما عثر عليه من شعره مقسماً على سبعة اقسام : الشعر السياسي ، الرثاء والعزاء ، التهنئة والمديح ، الدهريات ، الهجاء ، الغراميات ، المتنوّعات .

اما ما ذكر له من الكتب ولم يُطبع فهو :

١ ـــ العصر الجديد

ذكره هو نفسه في «المعلوم والمجهول» وقال عنه : «أتيت فيه على بعض لوقائع التي جرت بين مصر وفروق ولكني لم اتعرّض فيه لعبد الحميد بسوء . وهذا كتاب كنت انفذته الى مصر ليُطبع فيها . ولكنه تلاعبت به الايدي ولم يُسمع له ذكر . » (١

٢ ـــ مائة برهان وبرهان على ظلم عبد الحميد السلطان

ورد ذكره في ديوان وليّ الدين (٢ ، ولم نعرفه مطبوعاً .

٣ ـــ عفو الخاطر

مجموعة مقالات ادبية محضة ، شعرًا ونثرًا . أعلن عنه في ختام «التجاريب» ولم يظهر .

٤ ـــ كتاب العجائب وكتاب الخواطر

ذكرها في مستهلّ مقاله « فصل كُتب بالدموع » (٣ ولم نسمع لها ذكر بعد

٥ ـــ ذكران ورائف

رواية اجتماعية باشر طبعها قبيل وفاته

٦ ـــ الطلاق

تعريب رواية پول بورجيه (P. Bourget) المشهورة . ولم نعلم انها طبعت

وله غير ذلك كثير من المقالات المتفرّقة في الجرائد والمجلات العربية .

الفصول المنتخبة

وقد انتخبنا هذه الفصول من كتبه المطبوعة وخصوصاً « الصحائف

---

١) المعلوم والمجهول ٢ : ١٨   ٢) الديوان ، ص : ٤٣

٣) اطلب المنتخبات ، ص : ٦

السود » و« التجاريب » ، ومما وقفنا عليه من مقالاته المتفرّقة . امـا القسم الاخير فاخترناه من « المعلوم والمجهول » . وقد ذيّلنـا كل فصـل باسم الكتاب الذي ظهر فيه . الا ما لم يُجمع في كتاب ، « كالانفة » و« فصل كُتب بالدموع » ، فلم نُشر الى مصدره . وقد رأينا ان نقسم الفصول على اربعة اقسام ، وان كان اكثرها مشتركاً بين الاقسام جميعها :

١ — **السياسيات** : وفيها يصف الكاتب ظلم عبد الحميد ، منتقماً للضحايا البريئة .

٢ — **الاجتماعيات** : وفيها يبسط آراءه في بعض العادات ويدعو الى اصلاحها .

٣ — **الادبيات** : وفيها يرثي لحالة الاديب في الشرق في حياته ومماته .

٤ — **الشخصيات** : وفيها يذكر تفاصيل سجنه في الاستانة ، ونفيه الى سيواس .

مآخذ

يُضاف الى ما ذُكر من كتبه ، وفيها اوفر المعلومات عن حياته :

ولي الدين بك يكن — في المقتطف (المجلّد ٥٨ [١٩٢١] ٣٧٥)

الشيخ انطون الجميّل : ولي الدين بك يكن — في مقتطف ١٩٢١ ايضاً (ص ٥١٦) ، وهلال السنة نفسها (ص ٧٧٢) . ثم زيد عليه ، ونُشر مقـدّمة لديوان الفقيد — مطبعة المقتطف والمقطم بمصر سنة ١٩٢٤

الآنسة ميّ : شيء عن ولي الدين يكن — في الصحـائف ، مصر ، ١٩٢٤ — ص ٨٨—٩٤

وغير ذلـك معلومات متفرقة نُشرت في الصحف العربيـة بمناسبة وفاته ، والاحتفال بتأبينه .

القسم الاول

السياسيات

خليج البسفور

في احدى ليالي الشتاء

في ليلةٍ ليس بها كوكبُ   كأنما مشرقها مغربُ ،
يمي سوادًا كلُّ ما بينها   فتحتها وفوقها غيهبُ [1] ،
لا يُدرك الفكر بها مطلباً   فكل ما يطلبه يهربُ ،
جاؤوا بمظلومٍ الى ظالمٍ ؛   قالوا له : « هذا هو المذنبُ ! »
بكى . وفي الدار بكوا مثلَه ،   فكل من في داره ينتحبُ .
وقد رأينا حوله صبيةً   تندبُ حين امّهم تندبُ .
قال : « احملوه مثل اترابه   من كان من مذهبه يذهبُ ! »

***

واقبل الصبح على ايّمٍ   وصبيةٍ ليس لديهم أبُ ! [2]
يا بحر لو تنطق ، اخبرتنا   ما قال من غيّبتَ ، إذ غُيّبوا .

الظلم له يد ، وليس له فؤاد . يغمد خنجرًا من خناجره في قلب من قلوب الناس ، فلا يستشعر لذلك ألمًا . القتيل ، مضرجاً بدمه ، لديه ، كالحيّ ،

---

1) الغيهب : الظلام الشديد

2) ايّم : ارملة

مضمّخاً بطيبه. ظلمات الليالي، وظلمات البحار، وظلمات القبور. كل تستتر في اثنائها بدورٌ مطالعها الشباب، ومنازلها الآمال. واذا كان لاهل الويل تراثٌ[٣]، فاللواعج التي تذكيهـا الذِكَرَ، والحسرات التي تستدعيهـا الصروف. اجسام مـا زهور الرياض، ولا نيّرات الآفاق، ولا عقيـان القلائد، ولا جواهر التيجان، باحسن منظراً. تربى متنقلة في الـدلال من حنوّ مرضعة، الى غناء مربية، الى ابتسامة امّ، الى مواصلة حبيب، كل ذلك لمصرع لحظة يتلوها الفناء. ما اضيع الامل! وما اعدى القضاء!

في ليلة من ليالي الشتاء، سكنت تحتها الاشياء، وتحرّكت الضمائر، سوداء الجلباب[٤]، بيضاء الصقيع، طرقوا باب المظلوم فاطلّ عليهم. قال:

— من الطارق المنتاب؟

قالوا:

— اجب! شفيق[٥] يدعوك!

فقام الى ثيابه فلبسها، ومال الى اهله فودّعهم، وتوسّط رُسُل البين، وزبانية[٦] جهنّم. فاركبوه عربة سارت حتى وقفت بهم امـام باب كبير. فمشى الرسل، ومشى بينهم المظلوم. فادخل به على من وجّه في طلبه. فتقدم خطوات، وسلّم تسليم غير المشتاق، ووقف ينتظر الجواب. هـذا

---

٣) التراث: كالإرث: ما يخلّفه الميت لورثته

٤) الجلباب: القميص، الثوب الواسع

٥) شفيق: هو شفيق باشا، ناظر الضابطة على عهد عبـد الحميد، وصاحب اليد الطولى في تنظيم الجاسوسية، والقضاء على الابرياء المتّهمين.

٦) زَبَانِية: ج. زِبْنِيَة: المتمرّد من الجنّ والانس. ثم الشُرَطي. وزبانيـة جهنم: الشياطين الموكّلين بتعذيب الهالكين.

الموقف مَهْيَع[٧] من الحياة الى الموت ، تعلّل كل ثانية من ثوانيه ، نافع لمن ناله . رحمة الله على ابي تمام اذ يقول :

ها ان هذا موقف الجازع   اقوى وسوْر الزمن الفاجع

الطالب والمطلوب متواجهان . خصمان : هذا سيفه سلطان ، وذاك درعه اساه فلما استطال السكوت ، واستبطأ الشرُّ اسيره ، رفع شفيق رأسه ونظر الى غريه نظرة ملؤها الختل . ثم قال :

— الآن يذهبون بك الى « القصر » ، ولا أدري عمّ يسألونك هنالك . فكن رابط الجأش ، واحسن الجواب ، تلقَ خيرًا .

ثم أمر شفيق اثنين من الشرطة ان يركبا المظلوم عربة ، وان يمضيا معه ففعلا . فلما اوفوا على الشاطئ ، ألفوا زورقاً فيه اناس بانتظارهم . فأُركبوا الزورق ، وانطلق حتى رسا بهم الى جانب سفينة كبيرة ، فصعدوا اليها . وجاؤا للمظلوم بكرسي فجلس عليه . وناولوه سيكارة جعل يصعد دخانها ، وهو صامت . ثم اقبل من البر زورق آخر ، فصعد منه جماعة ، منهم محمد علي رئيس الهيئة التحقيقية اذ ذاك . فدنا من المظلوم ، وقال له :

— الآن صدرت الارادة السلطانية بالقائك في البوسفور . بذا قضى الله ، ولا مردّ لقضائه . فان كانت لك وصاة توصي بها من بعدك ، فهاتها . وان كانت نفسك تشتهي شيئاً مما يؤكل او يُشرب ، فاقترح .

قال : لا أريد شيئاً .

وانسابت من مقلتي الرجل شآبيب[٨] خضلت لحيته ، والناظرون

---

٧) المَهْيَع : الطريق الواسع البيّن .

٨) شآبيب : ج. شؤبوب : الدفعة من المطر .

اليه لا يبكون. هم يعجبون ان يجزع الناس لفراق الدنيا. شهدوا مصارع كثير من الخلائق، وشهدوا جزعهم عند الموت. فاستضحكهم ذلك، وقالوا :

ما لهؤلاء يخافون ما لا بدّ منه. وما تعجيله الا تعجيل امر لا ريب فيه.

يا حكماء الموت! هذا عجب الخليّ من حال الشجيّ! ولعلّ لكم في ذمة الدهر مواقف مثل التي انتم لها شاهدون!

سكت المظلوم سكتة غلبه عليها فؤاده. وفي ثنيّات الافق كواكب تنظر، ولا تسعف. والريح بليلة الجناح، واليمّ جائش الغوارب[9]، والبرّان في بيوتهما المنيرة شاهدان، ولكن لا ينطقان. الشعراء يبكون بابياتهم، والمظلوم يُنشد دموعه. اي قعيدة الشجون[10]. هذا الفراق!

فرّجي الخير، وانتظري ايابي اذا ما القارظ العنزي آبا![11]

لما جاؤا بالسلاسل فامرّوها على عنق المسكين، واثقلوا رجليه بقطع الحديد، واهووا به الى الماء فغاب في عبابه، عرف هوان الحياة، وكيف تجني الوالدات على من ولدنَ، والى اية غاية يكون المصير...

قالت جرائد الاستانة الصادرة في...

« عثر رجال الشرطة على جسد رجل بشاطئ البحر قد تشوّه وجهه،

---

٩) الغوارب : ج. الغارب : اعلى الموج.

١٠) قعيدة الشجون : اي التي اقعدها كثرة الحزن.

١١) مثل يُضرب للغائب الذي لا يُرجى رجوعه. اصله ان احد بني عنزة خرج في طلب القَرَظ وهو ورق شجر يُستعمل للدباغة، فلم يرجع.

وتمزّقت ملابسه وأعضاؤه ، فلم يمكن أن يعرفوا من هو. ولكنهم رأوا في ملابسه خاتمه المنقوش عليه اسمه ، فاذا هو اللواء [١٢] ... وظهر ان بعض اعدائه الخائنين انفردوا به يوماً فاغرقوه . وقد صدرت الارادة السلطانية بالجدّ في طلب الجانين الذين اعتدوا على مثل هذا الفقيد الغالي !!! ووعد من يعثر عليه ان يعطي جائزة سنّية ، ويزاد راتبه ، وترفع رتبته . »

بين نوحات النائحات ، وبكاء الثاكلات ، سكوت يأتي به الاعياء وتقطّع الانفاس . ذلك من الفواصل التي ينوب فيها القلب عن العين ، فتسكت الظواهر وتبكي السرائر. وقد وقع مثل هذا في بيت « الفقيد الغالي !!! » جاء رجل من القصر يحمل عطيّة . كلم الايّم من وراء ستارها ، فقال :

— أمير المؤمنين في حزن عظيم على المرحوم !!! فقد كان يحبّه كثيراً !!! وهو يقول : اذا ذهب حاميكم ، فانا حاميكم . وهذه هديته اليكم

فانطلقت الالسن بالدعاء من قلوب لا يشوبها الرياء ...

كانوا يخدعون الناس فيسرقون منهم الدعوات ، ويريدون ان يخدعوك ، يا ربّ ، ليختلسوا منك الرحمة والرضوان !

(الصحائف السود)

---

١٢) اللواء : ' عند الاتراك ' لقب صاحب رتبة عسكرية يقرب من القائد .

فصل كتب بالدموع

تعودتُ ان اكتب ما يمرُّ بي من العجائب في كتاب أحفظه ، سميتهُ « كتاب العجائب » ؛ وتعودتُ ان أكتب ما يعنّ لخاطري على كل عجيبة في كتاب آخر ، سميته « كتاب الخواطر » . امـا الكتاب الاول فلن يُطبع وانا حي . واما الكتاب الثاني فهذه صحيفة منه :

خلوتُ امس الى كتبي ، وأخذت من بينها كتاب خواطري . وجلستُ اقلّب صحائفه ، وقد تعالاها اصفرار من القِدَم . واذا صحيفة عليها نقط هي آثار دموعي . بقيت خالدةً كأنها معـانٍ تجسّمت من غير ان تلبس حلـل الالفاظ . قصرت عن ادائها لغةُ الضاد ، فأبانت عنها لغة الارواح . فلثمتُ تلك الدرر التي اذابتها اللواعج ، وأشربتها الاوراق ، وأخذت أتلوها . هذا نصُّها :

ليلة تضيع في معاقد ظلماتها انفاسُ المكروبين ، كأنها ذوب الحزن ، او نسج الاسى . ساكنة مضطربة . حبا [1] تحت رواقها الشرق . ومُحيت من صحيفة افقهـا سطور النجوم . اذا هينم النسيم ، خلت السماء تُسِرُّ الى البحر حـديثاً . واذا جاش البحر ، حسبت موجـه يتواثب ليُبلغ السماء انّات المظلومين من ثنيات الفضاء ؛ فتتفانى في نواحيه ، وتتساقط أدمع الباكين عَلَى ذاك الاديم الاسود ، فتستحيل بخارًا في جوفه . جفون مسهدة ، واخرى ناعسة . ومضاجع حَرّى ، واخرى مبتردة . وأهـاويل تجري عَلَى اعقاب الجدود المولّية . وأقدار تصرفها يد احتكمت في طرفي الازل والابد من

---

١) حبا : زحف على يديه وبطنه .

ملك الوجود ، تتواقع تحت سلطانها الاحوال والحيل ·

ربّي ما هذه المدهشات ! عدل تحار في معاليه العقول · وجلال تضيق عن اقلّه سعة الادراك · ان في ظل حكمك لخلقاً لا ندري لمن استودعته ! كلٌّ ينال من كفَيه ، ومن بين جنبَيه · ترتفع اليك شكاياته · وتكاد تهزُّ جوانب ملكك ضجّاته · الا رحمة تغيث بها الاكباد المتلهفة ! الا نصرة تتدارك بها الارواح المستطارة ! ان بهذا الركن من هذا القصر ، لَنفساً أشقت ثلاثين مليوناً من النفوس [٢] · ما فضل هذه الواحدة على تلك الملايين ؟ · · ·

واني لكذلك ، واذا يد تدقّ على باب الحجرة · فدعوتُ الطارق الى الدخول · وفي الحجرة مصباح كآمل الحُرّ في اصلاح الشرق ، يكاد نوره يكون ظلاماً · فجاوز الباب شخص مؤتزر ، يجرُّ فضول إزار أسود كأنه كفن محبر ، او ظلّ يتهادى · فلما بلغ مكاني وقف · ثم ارتفعت عين كورقة الآس ، مشيرة بالسلام ، رافعة نقاباً كان يحجب وجهاً تجول فيه مياه الحسن ، ترقرق فيه اصفرارٌ شابَ [٣] احمرارًا ، حتى أصبح كصفحة الافق عند الغروب هذه سيدة زائرة · فتمثلتُ سرًّا بقول جرير :

طرقتك صائدةُ القلوب ، وليس ذا   وقت الزيارة ، «فادخلي بسلام !» [٤]

بلغ مني التعجب اقصاه · هذا مقام المستريب : غانية حسناء ، في وحدة المجلس ، وتحت ستار الليل · وفي البلد عيون تطلب فتجد · وانا كثير الوُشاة ، جمّ الاعادي · فما سرّي بهذا الطيف ، ومن اي خدر زُفَّ الى عزلتي ؟ ولا يجمل بمثلي ان يبدأ الحديث بالسؤال · فسكتُّ سكوت

---

٢) يريد بها نفس السلطان عبد الحميد.

٣) شاب : خالط .

٤) فادخلي : في البيت : « فارحمي » .

إعياء. ولكنّ فطنةً سكنت تلك النفس الطاهرة أدركت مـا بي، فلم تُطل أمد حيرتي، ومدَّت بشمالها ورقة، ثم استأخرت خطوات الى ان بلغت الباب، فوقفت عنده.

وكان في الورقة :

« اخي اُسُدَّت في وجهي الابواب . انا متوسّد مضاجع السقـام، لا أستطيع حراكاً. وأصحابي يتجنّبون داري، لا يلمّون بها، حـذرَ الوشاة. تركني الخدام، وليس عندي رسول أُنفذه الّا جؤذر. هذه شقيقتي. عشتُ أغار عليها من عناصر الطبيعة، وأنا اليوم احملها كتابي اليـك . أدركني عسى ان اودّعك بنظرة قبل موتي. بادر بل اركض. اني احسُّ بيد الموت تمرُّ علَى جسدي . . .   اخوك مظلوم »

سبحان الله ! مظلوم محتضر. ينشدني بجؤذر. أ الى هذا العشّ ترقّت يد الظلم ! ألم يبقَ في دوح الشباب طائر يُصاد غير هذين القمريين[٥] !

وأنساني الوله ان آخذ طربوشي. ولم اكلم العذراء كلمة. بل تقدمتُ الى الباب مسرعاً وأشرتُ اليها ان اتبعيني. وانطلقتُ أطلب منزل مظلوم. وقد طارت عاصفة اخذت قطرات الغيث تسحّ على اجنحتها.

فلما بلغتُ الدار طال على الباب وقوفي، لان جؤذر لم تكن تقوى على الجري. فلحقت بي، وصدرها يضيق على انفاسها. ومدَّت بيمين مرتجفة مفتاح الباب، ففتحتُـه ولا أعلم كيف استطعت. فصعدت الـدرجات، وجاوزت غرفة الى غرفة، وانا أكاد أسقط من شدة العدو.

---

٥) القُمريين : مثنى القمري : نوع من الحمام حسن الصوت . يريـد بهما الشاب المحتضر واخته

رأيتُ باب حجرة النوم مفتوحاً . ولاح في الحجرة ضياء مصباح كأنه يدعوني . فولجتُ الباب ، ودنوتُ من السرير ، وطلبتُ بنظري المريض . فما راءني الّا جسد براه السقم حتى لا يمسّ ، وعينان تضاءلت فيهما اشعة الحياة ، وخالط لحظيهما نعاس الموت . قلت : يا مظلوم ! فلم يجاوب مظلوم . وطرف جفناه طرفةً كانت رجع جوابي .

— ما بك يا مظلوم ؟

— آه !

— تجلَّدْ !

— آه !

ثم أومأ الى جوذر . فاقتربت حتى وقفت عند قدميه . ثم نظر في وجهي مشيراً اليها . فعلمتُ انه يوصيني بها . قلتُ : هي اختي ، لك عهد الاخاء ! فاضطرب قليلاً ، وسكن . . .

ايتها النفس المروَّعة ! بأمي خالقكِ انَّا مظلومون . أفضي اليه بحاجاتنا . هو يعلمها ، ولكن لا بُدَّ من نوحة لديه .

شُغلت جوذر بالنحيب . فالتفتُّ اليها ، وقلت : وما نصنع الآن ، يا جوذر ، باخيكِ ؟

قالت : ما انا جوذر ! جوذر ماتت منذ يومين ! وهذا الميت لم يعزني عن اخته . انا جارة . انا أحمل رسائل الاحرار بين فروق [٦] وسلانيك . هذا ضُرب في يلدز [٧] ، وعُذِّب شهراً كاملاً . تولَّ تجهيزه ، وانا غداً راحلة . . .

سلاماً ودمعاً على مراقد الشهداء . . .

---

٦) فَروق : الاستانة .　　٧) يلدز : قصر السلطان عبد الحميد .

كم تحت هذه السماء من اعين باكية !

هل يعقل الدهرُ ، وهل يسمعُ ؟ فما الـذي يشكو لهُ الموجعُ ؟
تجري صروفٌ ، لا على نيّةٍ ، نخالهـا تبطئْ اذ تسرعُ ،
وكلنا شاكٍ وباكٍ على أشياء قد زالت ، فـلا ترجعُ .
كم تحت جون الليـل من مهجـةٍ تكاد لا تُمسكها الاضلعُ[1]
وصـاحبُ النعمة لاهٍ بهـا ، وحامـل النقمة لا يهجعُ !
رحماكَ يا خالق هـذا الورى ، ارثِ لبلواه ، اذا يضرعُ ،
صعبٌ علينا بعض ما قـد جرى ! أمـا اذا شئتَ ، فمـا نصنعُ !

تحت مضارب الظلم ، وفي استغراق سكونها ، حركات تحجبها استار الغيوب ، هي الاقدار . لا تغالَب لانها خُلقت غالبة . ولا تُتقى لانهـا تَرى ولا تُرى . والبرايا أغراض منصوبة ، تنتزعها بالرمية بعد الرميـة . فتصيب الاجساد ، وتنفذ منها الى الارواح . ولا يسمع لوقعها الا مثل وقع القبلـة على جبهة الميت في نعشه .

ما توشك البسمة ان تنطفئ فوق ثغر ، الّا وتجدهُ آثار البكاء . ان ينابيع الدموع لَمعينة[2] . وان منابت الحسرات لخصبة . وللامل الكاذب

---

١) جون الليل : شدَّة سواده .
٢) النبع المَعين : الجاري ، الغزير

وميضٌ في ليالي الخطوب. أشقى الناس من يعلق بهِ بصره.

بكينا بيروت في جراحها الدامية[٣] . واعولنا على التيتانيك[٤] في غرقاها. وها نحن اليوم نندب تكساس[٥] في اضاحيها . يا ديباجة الافق انطوي. ويا سحب الربيع موري. ويا مياه الاوقيانس غيضي . ويا صفحة الارض تمزّقي. ويا رواسيها ميدي. حتى لا يبقى على هذه الكرة الهوجاء، الّا دخان الحسرات، منعقداً في جوّها على ارواح المظلومين.

سمعت يمامة ترّجع[٦] على فنن الدوح. فهاجني ترجيعها. قلت: يا يمامة، دوحك مورق فينان[٧] ، وماؤك عذب رقراق، وعشك تلاعبه انفاس الصبا، وملعبك طيّات النسائم وملك الله في فضائه، فما شجاكِ فابكاكِ ؟ ومن القى عليك هذا الترجيع؟ يطاردك الصياد الخائن فتعجزينه، ولا تعلمين انه مدركك يوماً . وتتوعدك كواسر الهواء متحاومة عليك، وان في عشك لفراخاً زغب الحواصل . فهل اتاك ان للاقدار وثبات لا مهرب منها؟ تذكرت قول ابي فراس[٨] :

ايضحك مأسور، وتبكي طليقة ، ويصبر محزون ، ويندب سال ؟
لقد كنت اولى منك بالدمع مقلة ولكن دمعي في الحوادث غال !

لقد تتقى الحرب بالسلام، ولكن بمَ تتقى الاقدار ؟

---

٣) يشير الى ضرب بيروت اثناء حرب ايطالية وتركية
٤) التيتانيك : الباخرة الكبيرة المشهورة التي غرقت باصطدامها بجبل جليد.
٥) تكساس: باخرة عثمانية اصطدمت بلغم فغرقت في ميناء أزمير .
٦) رجّع : ترجيعاً في صوته : ردده في حلقه.
٧) فَينان : لهُ أفنان ج. فَنَن : الغصن المستقيم ٨) اطلب الروائع ١٦ : ٣٦

مكان الدمعة الحائرة على المحجر[٩] المسهّد ، مكان اليتيم الضائع على السبيل الموحشة . تتلألأ ثم تختفي . ولو دامت مكانها لكانت الشقوة اعظم .

ايتها الام الثاكلة اجملي جزعاً ! وايتها الأيم الواله اقتصدي وجلًا ! ويا ملك المهد ، ابكِ واستبكِ ! صوتك مرنان[١٠] ، ودمعك لؤلؤ رطب . دع الايام تنظم من ذلك اللؤلؤ قلادة تلبسها الرحمة . هي اولى بهذا الحلي دون كل الحسان .

في ذمة الله ايتها الانفس المستفاضة ، والاشلاء الضائعة بين السماوات والبحار ! اذكرينا انّا ذاكروك ! وابكي علينا انّا باكون عليك ! لم يبقَ بيننا وبينك رسائل سوى العبرات !

(تجاريب)



---

٩) المِحجر : من العين ، ما دار بها

١٠) مِرنان : كثير الرنين .

القسم الثاني

الاجتماعيات

التكبر وحداثة النعمة[١]

لا بدّ من التنقّـل الى الاجتماعيّات ، فقـد تضجر النفوس اساليب السياسة[٢] . ثم نحن الى الاجتماعيّات اشدّ منا حاجة الى السياسيات . طال عهدي بفصول كنت اريدها فاجدها . ها انا اليوم تصبيني الذكرى ، وتجدّد حنيني الصبوة ، فارجع الى « التجاريب »[٣] بعد ان طال بيننا التهاجر .

اريد ان اصف التـكبّر وحداثة النعمة وليس عندي وصف يرضيني . لان الذين وصفوا التـكبر وصفوه غاضبين ، وانا اريد ان اصفـه هازئاً لا ء ضباً . ويبقى لي شيء اتمّ بهِ الـكلام في حداثة النعمة .

التـكبّر ينشأ في نفس المرء من اشياء كثيرة اشدّها الحمق . ثم الاغترار بالانتقال من الضعة الى الرفعة . ثم محاولة العزة عند الناس .

المتـكبّر ينظر الى اعطـافه ، ويأخذ في تغيير قعوده ، ونهوضـه ، ومشيه ، ووقوفه ، حتى يستضحك الناظر . لان النفس اذا خلا منها موضع

---

١) في هذا الفصل ، والذي بعده ، تصوير صادق لأنفة ولي الدين التي تدفعه الى احتقار ارباب الأنفة الزائفة ، وهي الـكبرياء الناتجة خصوصاً عن حداثة النعمة . راجع ما قلناه في هذا الامر ، في المقدمة ، ص : يا

٢) اشارة الى فصوله السياسية التي كان ينشرها .

٣) التجاريب : اسم المجموعة المأخوذ منها هذا الفصل . راجع المقدمة ، ص : يج

الفضل ، وباتت الشمائل معطّلة من زينـة الاخلاق ، استمكن التكبر وبدت غرائبه .

عرفت رجلا تكبّر بعد عناية اصابته ، فرأيته في احد مجالسه ، وما زال ينحرف في قعوده ، ويتلوّى في توجهـه ، حتى انشقّ بنطلونه وافترّ عن بياض قميصه . فكان عابساً من فوق وباسماً من تحت . وكاد اهـل المجلس ان يموتوا من شدة الضحك .

ولقد رايت اناساً من ذوي الالقاب المستحـدثة يتكبّرون . فهالني الامر . فرحت اتحرّى فيهم شيئاً من النبل او الفضل اتخذه عذراً لهم . فاذا عقول بخواتم ربّها ، لم تمسّهـا فائدة . واذا ألسُن يتساقط منهـا الحديث «كجلمود صخر حطّه السيل من علِ »[٤] . واذا وجوه صفر كل وجه منها كامساكيّة رمضان . واذا عيون ما اومض فيها بارق من الـذكاء . فقلت في نفسي : ما اشدّ عبث الدهر ! يرفع هؤلاء من مواضعهم ثم يجلسهم مجالس ما خُلقوا لها ، ليفضحهم على رؤوس الاشهاد . ولو تركهم حيث وُلدوا ، لكان اشدّ رحمة بهم .

ان لقب «باشا» في هذا البلد اشدّ اسكاراً للمرء من زجاجة الويسكي . ينالهُ القروي الذي ربي بين الانعـام ، وسار يستحثّ المحراث ، وتقوم جنباه على مضـاجع الهشيم ، تحت سقوف الاعشاش . ثم ينزل مصر ، او يطلع الثغر ، فيرفل في حلة تكاد تنحل عن اعطافه . يخال رائيه ان ثيابه تمشي وحدهـا . فيطغي ثم يطغي . ويأتي طغيانه ، على شكله المضحـك وكلامه السمج ، كالخضاب على راس الاصلع . فهذا فضح نفسه ، ولا يشعر

---

٤) هو عجز البيت ٥٢ من معلّقة امرئ القيس (الروائع ٧ : ٤)

انه فضحها . لانه يرى ضحك الناس منه ، فيحسبه اعجاباً بفضله .

يا سيدي الباشا ! لو تركت هذا الخان ، وتبوأت عرش بلقيس تنقـله الى ايوان كسرى ، واتخذت من حمرة الشفق بُردك ، ومن نجوم الافق ازوارك ، وتقلدت لامع البرق حساماً ، وجعلت قوس قزح حمائله ، مـا زادك في عيني اجلالاً مثلُ ادب اجتنيه من فمك ، وخلق كريم اتبيّنـه في طبعك . واني ليزهدني في كثير من امثالك ما بيننا من اختلاف الحال : انا اكتب ، وهم لا يفهمون . وانا اخلد ، وهم يفنون . وانا قديم عهدٍ بالنعمة ، وهم حـديثو عهد بها . وانا يكرر ذكري كل ناطق بالضاد ، وليس فيهم من جاوز ذكره آخر الزقاق الذي يسكنه . اتحدّث بنعمة الله ، تأدية لشكره . فاين انت مني ، حتى تتطاول عليّ ؟

وزراء الغرب ، واغنياؤهم ، واعيانهم ، يتواضعون لمن يغشى منازلهم . وهم لم يبلغوا ما بلغوا من الرفعة الا بالجدّ والكدّ وسهر الليـالي . وانت قبّلت الاذيال ، ولا تزال تقبلها . فما يرفعك فوق اهل الرفعة ؟

الا ترى ملوك الغرب كيف يتواضعون فيكلم الملك منهم الجندي ، ويضع يده عَلَى كتفه ويقول له : بني ، واخي . الا ترى سموّ امير البلاد(*) ! ما حظي باثم عينه احد الا خرج ، ولسانه شاكر ، وقلبه منشرح . ولكني استغفر الله اليك ! لقد قايستك مع غير نظير . ولا اطمع ان تسمو نفسك الى اكثر مما خُلقت له . فكن حيثُ يسرّ لـك ان تكون . مكانك من الطبع اولى لك !

هذا حديث اتى عرضاً وها انا منتقـل الى غيره . شجو في الفؤاد ،

(*) المراد به خديوي مصر .

فاض ثم تدفق . فواحرّ قلبـاه ! كم يعاني المتأمل حالات النـاس من سوء اخلاقهم . التكبر وحداثة النعمة . بئس القائدان الى العماية !

السيدات يتجملن بالثياب وبالحلي . والرجال يتجملون بالاخلاق . وان افتن السيدات انضرهنّ اخلاقاً ، واطيبهنّ شمائل . تلك التي يتضاءل عند نور نفسها لمعان جواهرها فما ظنك بالرجال !

رب كرسي يضطرب فوقه حـديثُ النعمة ، وكأنهُ جالس على قرن الثور ، لو اتُخذ درجةً لركوب الخيل ، لكان ارفع قـدرًا . ورب متكأٌ يغوص فيه حديثُ النعمة ، لو تحوّل مربطاً لجواد ، لكان اشرف قدرًا . حداثة النعمة فتنة من شر الفتن . ولكن الشرق مظلوم . محاسنه اقلّ من مساوئ الغرب وهو غيران[٦] مختال بها . يا مطلع الشمس وموطن المجد ، متى يغنيك الله عن الغرانق[٧] ويبعث فيك مثل اولئـك ؟ انك لجدير بالرحمة !

(التجاريب)

الانفة

ان للانفس الساكنة الى الاحساب الزكية حالَين من لين ومن شدّة ؛ قد لا يكون لها فيها اختيـار ؛ ولكنها تستشعر باللطف فتلين ، وتحس بالجفاء فتشتدّ . وانما يسيّرها في حالَيها سلطانٌ هي مسخّرة له . ذلـك هو الانفة .

---

٦) غيران : كارهٌ ان يشاركه الغير في تلك الصفات .

٧) الغرانِق : ج . غِرنيق وغُرانق . في الاصل طائر مائي يشبه الكركي ، نحيف . ويُطلق مجازًا على الشاب الحسن الهيئة .

تبدو الفائدة في باب قصر كبير محجوج الركن[1]، مقصود المكان. فتزدحم الناس بآمالها ومطالبها. كلٌّ يصيب على قدر سعيه، وحيلته. وذو الانفة واقفٌ ينظر. تعريه الرغبة ويزهده الكبر. وان به من الحاجة مثل ما بالمزدحمين كلهم. ولكن عنده من الصبر مثل ما عند المزدحمين كلهم

ويتراءى شخص الهول في مثار الحوادث، فيتراكض الخلق طلباً للنجاة. كلٌ يشتدّ في عدوه على قدر صلابة ساقه. وذو الانفة ثابت في موطنه. لا يتطلّع امامه، ولا يلتفت وراءه. وان بقلبه من الخشية مثل ما بالقلوب الخاشية جميعها. غير ان الانفة تغلب الروعة. فيعلوه من وقار السكون، مثل ما علا الخلق من خفة الرجفان.

ويشرق نور الجمال من المحيا الطلق، ويتألق بارق الفتنة من الثنايا المفلّجة[2]، ويتدفق السحر من الاطراف الساجية. فتختلج الارواح، وتحار العقول، وتخفّ الاحلام، وتبطل الحكمة. واذا الناس صرعى، وذو الانفة معجب، ولكنه مستأخر. مفتون اللبّ، ولكنه ناصح الرأي. وهو انفذ تأملات، واوسع ادراكاً، وأدرى بمعاني الجمال، واشدُّ حساً بكهربائه.

ويثور الهوى ثورته. فما على الارض من طود[3] راسخ الّا اضطرب على قواعده. ولا في صدر الكون من ريح ساكنة الّا اشتدّت عواصفها. ولا في اقطار الارض من بركان مبترد الّا اضطرم جاحمه[4] وتطايرت حممه[5]

---

١) محجوج الركن : اي يؤمه الناس طلباً للفائدة .
٢) المفلّجة : من الاسنان : المنفرجة . ٣) طود : جبل شامخ
٤) الجاحم : الجمر الشديد الاشتعال .
٥) الحُمَم : ج. حُمَمَة : المواد المحترقة التي يقذفها البركان .

واندفق مُهْله[٦] . ولا في اودية الارض نهر الّا علَت امواجه ، وفاض على الشعاب[٧] ثجّه . ولا في الاجساد نفس الا ولهت . ولا في الصدور قلب الا ذاب . وذو الانفة يعالج مثل ما يعالج الكل . وهو اكثر حصةً من الكل . الّا ان الانفة اشد حسّاً من النفس . وهي توطد النفس على احتمال المرّ من الصبر ، او تذوب من اللواعج .

يا ويح ذي الانفة ممن لا يفهمون الانفـة . اذا أيقن انه غير مفهوم الطبائع ، تململ ، وأنشد قول ملك الكلام ، اسماعيل باشا صبري :

يا موت ، خذ ما أبقت الا　　يام والساعات مني .
بيني وبينـك خطوةٌ　　ان تخطها ، فرّجت عني ا

***

ان في هذا الوجود لنفوساً تنمّ عليها حالاتها ، ولكن تقصر عنها الفتن . فهي كالكتب المختومة ترجع الى دار البريد ، قبل ان تفضّها كف ، وتقرأها عين .

المرأة

شهدت مصارع ثلاث نسوة : احـداهنّ قتلهـا الاستبداد ، والثانية أرداها الجهل ، والثالثة أودى بها الحجاب . فقل في ثلاثة أنجم طلعت بأفق الصبا ثم احتواها الافول . شباب غضّ اذوى ريب المنون بهاره[١] ، وأنس قريب أبعدته وحشة القدر .

---

٦) المُهل : الرماد الحارّ ، او بقيّة الجمر فيه .

٧) الشعاب : ج . شعب : مسيل الماء ، الناحية .　　١) البهار : الجمال .

فأما التي قتلها الاستبداد فامرأة جركسيـة كانت مقيمة مع أهلهـا بقرية من قرى « العزيزية » التابعة لولاية « سيواس » . اشتراها أحد رجال « س . . . باشا » من أبيها بخمسة وعشرين جنيهاً . فلما قدم بها الاستانة على سيّده ، أهداه اياها . فاسكنها حرمه ، وكساها وحلّاها ، حتى اذا خطرت لديه ، رأى في مواطئ قدميها مواضع لجباه العاشقين ؛ فخطب ودّهـا ، فنظرت اليه بعينين نجلاوين لا واقي لقلب رمتاه ، وقالت :

ــ مكاني في خدمة الامير أحب اليّ مما عداه .

فما زاده ذلك الا حبًا لها ، واستهتارًا بهواها ، وما زادها الا نفورًا منه وبغضاً . فتمكنت ذات يوم من انفاذ كتاب لابيها تشكو له ما تجد من اشتياقها الى أمها وأخواتها ، وتعلمه بما تحسّ به من اضمحلال قواهـا . فاصابت شكايتها موضع الرحمة من فؤاد ابيها ، وأقـام أياماً يتزوّد للسفر اليها . . . فلما عاد من سفرته ، قالت له امرأته : « كيف حال من بعتها ؟ » فقال : « رحمة الله عليها . . . »

وأما التي أرداها الجهل ففانية كتمثال ڤينوس [٢] استصحبها أبوها الى بيروت ، وهي في الخامسة من عمرها ، وادخلها هنـاك احدى مـدارس الراهبات ، أخذًا برأي صديق له . فلما أتمت علومها التي في مدرستها ، أخرجها ابوها ، وقد بلغت الثالثة عشرة . وأوجب عليها الحجاب ، ومجاورة البيت ، ومنعها مطالعة الكتب الافرنجية . ولقد قالت له : « اذن لمَ علّمتني مـا لا تريد أن أعمل به ؟ » فقال لها : « لي الأمر ، وعليك السمع والطـاعة ! فدعي الجدال ولا تتشبّهي ببنات النصارى . أنت ، والحمد لله ، مسلمة ،

---

٢) ڤينوس : الهة الجمال .

وأبوك مسلم ، وأمك مسلمة .» فامتثلت المسكينة وفي النفس ما فيها .

فبينا هي ذات يوم في غرفتها ، اذا بأمها داخلة عليها فما تقابل النظران ، الا بادرت الام الى ابنتها قائلة : «جاء أباك خاطبٌ يخطبك منه .» فقالت الفتاة : « لا أريد الزواج .» قالت الام : « لكنه فتىً جميل كأنه احد ابناء الملوك ! » قالت الفتاة : « ما لي وجماله ، وغناه ، ومشابهته أبناء الملوك . أنا لا أعرفه فلا أريده .»

ثم مضى شهران . وفي أول الثالث زُفّت المجهولة الى المجهول . ثم مضى شهران . فدخل عليها زوجها يوماً ، وفي يدها صورة رجل مكشوف الرأس ، عليه ثياب قوّاد الجنود ، وفي يده قبعة . ففار دم زوجها ، وثار غضبه ، وأدركته غيرة الزوج ، فعمد الى خنجر كان يحمله فشقّ به بطن امرأته ، فاذا هي جسد بلا روح . ولما تأمل الناس ورجال القضاء الصورة التي أغضبت الزوج ، اذا هي صورة واشنطن الشهير ، محي مجد أميركا !! .

واما التي قتلها الحجاب فقد تزوجها رجل من أهل أدَنَة شديد الغيرة ، دخلت بيته ليلة زفّت اليه ، ولم تخرج منه ابداً . حتى اذا مرضت وثقل عليها المرض ، واشتدّ الألم ، دعا زوجها طبيباً وأخذ يصف له ما تشكوه . فقال : أنا لا أداوي على السماع ، ولا بدّ من رؤية المريضة ، وفحص موضع العلّة . فأبى الزوج الأبيّ ذلك . وما مضت أيام قلائل الا وقد ازروها في أكفانها ، وشيّعوها الى منزلها الابدي . من ضريح الى ضريح .

وأعرف نوادر غير هذه لا أكلّف نفسي ألم ذكرها ، ولا أهب القراء كمد العلم بها . هذا فؤاد كالبركان . له أيام يثور فيها . وله أيام يسكن فيها . وكم لي عند الايام من ثارات ، ولكن ضعفَ الطالب وعزّ المطلوب .

على انني راضٍ بان أحمل الهوى وأخلص منه لا عليّ ولا ليا

فواعجبا ! الله يخلق هذه الصور ، فيسبح عليها من الجمال ما يستخف اب الحكيم ، ويودع في تلك الارواح لطف الالهام ، ونور اليقين . فاذا هي تكاملت في أشكالها، تخاطفتها أيدي المتغلبين فقالوا : «هذا متاع حسن ولهو ، ومسكن لذة ، ومستقر هوى !!! » ضلال في ضلال .

أما لو كانت في الغانيات مثل جورج ساند ومثل مدام دونواي [٣] ، لتقاعست همم المستبدّين

رأيت رجالاً يبذرون المال تبذيراً فاذا أقاموا الافراح نصبوا السرادقات ، ورفعوا الاعلام ، وأوقدوا الزينات ، ومدّوا الموائد ، وجاءوا بالمغنين والمغنيات ، واستكملوا أسباب المسرات . كل ذلك ليدخلوا بامرأة لا يعرفونها . خطبوها لانها خلقت لتُخطب ، فاذا صارت في أيديهم أياماً ملّوا حديثها ، وسئموا قربها ، وراحوا يفتّشون عن غيرها . فمثلهم كمثل الطفل المدلّل يرى اللعبة ، فيبكي لابيه وأمه حتى يبتاعاها له . ثم لا يلبث ان يحطّمها ، ويطرحها جانباً ، ليأتيا له بغيرها .

هذا عصر غارة شعواء يشنّها المجدّدون على شيعة الرأي القديم . وما ضرّني ، وقد اشتعل الرأس شيباً [٤] ، أن أتقدّم صفوف الشبّان . فان لم اكن صاحب امرهم ، فما عليّ أن أكون حامل رايتهم . فمن لي بصاحب تحرير المرأة [٥] أن ينفض عنه تراب القبر ، ويخرج الى الاحياء ليرى مبلغ استفادتهم

---

٣) جورج ساند ومدام دي نواي : من كاتبات فرنسة الشهيرات

٤) يكتب ولي الدين سنة ١٩١٠ ، وعمره ٣٧ سنة .

٥) المقصود به قاسم أمين ، اول من نادى بتحرير المرأة في مصر .

من رأيه . أما أنه لو فعل ، ولن يفعل، وقرأ ما يكتبه قوم في ابقاء الحجاب والتحكّم على أمهات الأجيال الآتية ، لكرّ راجعاً الى مرقده وأغمض عينيه حتى لا يرى ، وأذنيه لكي لا يسمع ، وأنشد قول الحكيم القديم :

ضجعة الموت رقدة يستريح الـ جسم فيها والعيش مثل السهاد [٦]

(الصحائف السود)

اكذوبة ابريل واكذوبة رمضان

تعوّد الغربيّون ان يكذب بعضهم على بعض في اليوم الاول من شهر ابريل . وهو كذب ليس وراءه نفع ، ولا يختارونهُ خشية من شرّ ، وما يريدون بذلك الّا مداعبة ومزاحاً . على انني لا اعلم ممن تورّثوا هذه العادة ، ولا كيف انتهت اليهم ، وبقيت الى زماننا الذي طوى عجائب القدماء واكثر حماقاتهم . هذه غوايات اقلع عنها اهل الوقار من الغربيين ؛ ولم يستمرّ على ضلالها غير فئة قليلة من العامّة والاحداث .

واني لأكاد اذهب في تعليل هذا الكذب مذهباً لا ادري أهو الحق ، ام ظنٌّ انا اظنّهُ وحدي : اخال ان اهل الغرب لما علموا ان الكذب عيب من العيوب التي لا تواطن المروءة في قلب ، أنفوا تعوّدهُ ، وحرموهُ في ايمانهم . واذ كانت النفوس مفطورةً على البسط بما هو محظور، رأوا ان يجعلوا لهم يوماً يكذبون فيهِ لكي ينيلوا الانفس مشتهاها . وعلى هذا جرى اهل النسك والعبادة في كل دين . فان الصائمين الذين عافوا ما يلذّ في افواههم ، واستعاضوا عنها بلذات النفوس ، يغيّرون عاداتهم ويبدلونها احياناً . فاذا

---

٦) البيت لأبي العلاء المعرّي في رثاء احد الفقهاء .

كان وقت الافطار ، جاؤوا بما لذّ وطاب من مـأكل ومشرب ، وزينوا موائدهم بانواع الفاكهة والنقل .

اما رمضان فلهُ اكذوبة يتخذها اكثر المرزّئين [1] في ذممهم . فلقد يهون عليهم ان يكذبوا ، ولا يهون عليهم ان يقولوا : نحن مفطرون . يملأون بطونهم في بيوتهم ، ويخرجون الى الاسواق بايديهم المسابح من اجود المرجان والكهرباء « الكهرمان » ، ومن البلّور ، ومن العود ، ومن العنبر ، يلوّحون بها اذا اشاروا . ومنهم من ينتهرك ، اذا دانيتهُ وفي يدك سيكارة ، ويقول لك : « اذا كنت لا تؤمن ، فدع من يؤمنون يعبدون ربهم ؛ ولا تكدر عليهم صفو العبادة ! » واذا ساوم احدًا على شيء يريد ان يشتريهُ منهُ ، علا صياحهُ ، وازرقّ وجههُ ، وحملق بعينيهِ ، وجعل يقول لهُ : « هذا يوم صوم ! وأنا رجل يجهدني الإمساك عن القهوة والدخان . فاذا زيّن لك الشيطان ان تملأ رأسي بكثرة كلامك ضربتُ بك الارض ، وأنزلت عليك المصائب . »

ما لك ، يا اخا الزهد ، تزهق الارواح ، وتستنفد الصبر ! وما لنا نحن وزهدك ! سواءٌ علينا طرت بهِ حتى جعلت اخمصيك على هامة زحل ، ام هويت بهِ الى حيث يهوي الكاذبون .

في البلاد العثمانية كل المسلمين صائمون . كانت الحكومة المستبدّة تسجن المفطر الى ان يأتي اليوم الثالث من عيد الفطر . وكان اكثر المفطرين يدّعون الصوم ، ويحسنون تقليد الصائمين . حتى لقد بلغ امر الكذب ان يضرب المفطرُ في بيتهِ من يدخّن بجانبهِ سيكارتَهُ . وقد خرجت بها ذات

---

[1] المرزّؤون : المُصابون .

يوم في رمضان ، وراءَ امرٍ عرض اريد قضاءَهُ . فلما ركبت الترامواي ، رأيت جماعة من الاجانب على رؤوسهم القبعات ، وبأفواههم سيكاراتهم . والناس ينظرون اليهم شزرًا ، ولا يقدر احد منهم ان يخاطب اولئك الاجانب بكلمة تسوءهُ . وكانت علبة سيكاراتي معي . فنسيت ان اليوم من ايام رمضان . فأخرجت سيكارةً جعلتها في فمي ، واقمت انتظر ان يمدَّ اليَّ احد الجالسين شيئاً اشعلها به . فمشت فيَّ عيونُ الركب . وجعل بعضهم يغمز بعضاً مشيرًا اليَّ بلحظه . ففطنت لموضع خطائي ، وقلت اداويه لكم ايها الكاذبون بالكذب . ثم وثبت من مكاني بغتةً كمن تذكر شيئاً كان نسيهُ ، وقلت : «لعن الله الشيطان ! كدت والله ادخن سيكاراتي ، وأنقض صومي ! » ونظرت الى رجل جالس على يميني ، وقلت مؤنباً لهُ : «كذا يا اخي ! تراني اهمّ بما يفسد عليَّ صومي ولا تنبهني الى ما كاد يفرط مني عن غير عمد ! وانت تعلم ان الدين يقضي علينا بالنصح لمن سها وان لا يعرض الّا عمن تولى ! »

فابتسمت الثغور وسُرّي عن القوم .

ولقد دعاني وأنا في بلاد الاناضول احد الولاة الذين تفتخر بهم البلاد لافطر معه . فاجبت الدعوة فرحاً باستماع حديثه ، والجلوس اليه . فدوّى المدفع ، والمائدة كظهر السلحفاة مما عليها من الاطعمة والاواني . فقال قائل . ارى زهيرًا[٢] قليل الاكل ، كانَّ بأضراسه فلولًا . فتبسمت وقلت : هذه الاضراس ارادها اخو ذبيان[٣] بقوله :

---

٢) زهير : هو الاسم المستعار الذي كان الكاتب يوقّع به مقالاته في «المقطّم»

٣) اخو ذبيان : اي النابغة الذبياني ، من شعراء الجاهلية .

تورثنَ من ازمانِ يوم حليمـةٍ الى اليوم قد جُرّبنَ كل التجارب[٤]

فلم يفهموا ما اردت فشرحت لهم البيت وعرفتهم المراد ، ثم قلت : كان الاحسن ان اشير الى قوله :

ولا عيب فيهم غير ان سيوفهم بهنَّ فلول من قراع الكتائب[٤]

ولكن ابيت ان تشاركوني في مجدي . فضحكوا . ثم قال لي الوالي : « بالله عليك يا زهير الّا ما صدقتنا . أأنت صائم حقًّا ? قلت : لا والله ولا صمت قبل اليوم في حياتي » فكاد الوالي ينفطر ضحكاً . اما الحاضرون ، نبقوا واجمين ، كأن قد صبَّ على رؤوسهم طست فيه عشرون اقة من البترول . فعلمت اني مغضبهم في ليلتي . فلما انتهينا من الطعام ، وخرجنا الى المكان المعدّ للتدخين ، دنا مني احد المعمّمين . وهو رجل كالجرادة ، لهُ لحية كقائمة المزاد[٥] ، وعينان كزيتونتين . فنظر في وجهي ملياً ثم قال لي :

— لِمَ لا تصوم ?

— لا ادري !

— كيف لا تدري ?

— ككل من لا يدري !

فغلب الضحك على الرجل ، وتنحيت انا جانباً لكي لا يطير في وجهي رشاش من فيه . فقال :

— ما لك تنأى عني . اغول انا فتخافني ?

---

٤) البيتان من قصيدة في مدح عمرو بن الحرث الغساني ، وهما في وصف السيوف الماضية . والضمير في «تورّثنَ» للسيوف . اما « حليمة » فهي بنت الحرث ابن ابي شمر الغسّاني .

٥) المَزاد : والمزوَد والمَزادة : جراب يوضع فيه الزاد .

ـــ كلا. بل فمك رائحتهُ منتنــة فلا اقدر ان اشمّها . . . فوالله ما امهلني ان اتم كلامي ، بل ولّى عني غير ملتفت وراءهُ .

ثم قصّ على الوالي ما وقع لهُ معي . فقال لهُ الوالي :

ـــ اياك ان تحرّك عليك لسانهُ . امــا انهُ لينتزع السهم ، ويصيب المقتل .

ولقد جاءني رجل في رجاء حسبني محلًّا لهُ . وكنت اشرب قليلًا من الماء . فلبي رجاءهُ ، وجعل يعنفني . فلم املك الغضب . فقلت لــهُ : « امن أجل هذا اتيت الساعــة ايهــا الفضولي ؟ اخرج ! والّا رميت بك من أعلى السلّم الى اسفلهِ . » فخرج ، ثم عاد وهو يقول ، وعيناه مغرورقتان دموعاً : « جئتك راجياً فلا تخيّب ، وابيك ، رجائي . » فسمعت رجاءهُ ، وصرفتهُ عني واعدًا اياهُ خيرًا .

وكان اكثر اصحابي من مستخـــدمي الحكومة يعرّجون على داري يشربون فيها قهوتهم وسيكاراتهم ، حتى لقد قلت لهم يوماً : « احمد الله كثيرًا ! لقد جعلني صاحب قهوة الكاذبين . » فنظروا اليّ وقالوا : « اتقِ الله ! »

اما الآن فلا ادري كيف حال الشبان في الاستانة . فقد اعلنت نظارة الداخلية بوجوب المبالغة في حجاب السيدات المسلمات ، وتوعــدت ذويهنّ بالعقاب ، اذا بدا منهن ما يخالف هذا الامر . والخبر اليقين عن المفطرين هو في مطعم توقاتليان ويني في الاستانة . وفي مصر من الحرية الشخصية ما لا يضطرّ الى التواري عن الابصار ، والاختباء تحت الموائد . ولكنّ في الناس كثيرين يفعلون ذلك . ولولا اني شاركت بعض الاجانب في الكذب معهم

في اول يوم من شهر ابريل ، وذلك حين كنت ابن عشرين سنة ، لجاريت اهل المسابح الى الكذب . غير اني جالس امـام مكتبتي ، وعينـاي شاخصتان الى الساعة ، وقد دوّى مدفع الظهر الذي افطر عليه . فاكتفي من مقالتي بهذا القدر ، وموعدي مع القراء الجمعة الآتية ان شاء الله تعالى .

(الصحائف السود)

الاسراف ! الاسراف !

امس أرهفت الشفار ، وشمّر الجـازرون عن سواعـدهم ، وجيء بالاضاحي[1] التي اسمنها مقتنوها ، وطلوا فراءهـا بالحنّاء وبالوَرس[2] ؛ وفيها من موّهوا بالذهب قرونها ، ودهنوا بالزعفران آذانها . فاكبّ اهـل الصناعة[3] على صناعتهم ، فمن مكبّر ذابح ، ومن نافخ ضارب ، ومن سالخ جاذب ، ومن مقطّع ناصب . وعلى ابواب البيوت الأقيال[4] وأبناء الاقيال من الساسانيين[5] ، وقوفاً صفوفاً ، او جثماً قعوداً ، يراقبون من كل باب مصراعهُ ؛ وكأن البـدر سيطلع عليهم في موكبِهِ السماوي ، او كأن سينجاب غشاء الابصار فتبدو من ورائهِ القِسَم .

بتّ يوم الاربعـاء بليل بطيء الكواكب ، ناصب الهمّ ، مسدود

---

١) الأضاحي : ج. أُضحيّة و إِضحيّة : شاة يضحَّى بها في عيد «الاضحى» وهو العاشر من ذي الحجّة ، ويسمَّى « يوم النحر » ايضاً .

٢) الوَرْس : نبات كالسمسم يُصبغ به ، فيأتي اللون بين الحمرة والصفرة .

٣) اهل الصناعة : يريد جم الجزّارين .

٤) الأقيال : ج. القَيْل : الرئيس ، ويستعملها هنا للتهكُّم .

٥) الساسانيون : او بنو ساسان : المقصود جم الشحّاذون .

مسالك النسائم ، مقلقل مواضع النجوم. وكأن الهلال يكاد ينطفئ ، اذا نفخهُ نافخ ؛ وكأن الثريا يكاد ينقطع مناطها ، اذا مدَّ اليها كفهُ متناول. فقلت في نفسي يا لهُ من ليل ! ادعو الكرى فلا يجيبني الكرى ، وأغمض عينيَّ كرهاً فتنفتحان كرهاً. خفتت الاصوات ، وسكنت الحركات ، وهدأت الجوانح ، ولانت المضاجع. اما لولا ان تولّت غضارة الشباب ، وبطل سحر الجفون ، لقلت اني عاشق. فلما طال ما بي حتى امضّني ، جلست الى كوّة لي تطلّ على ميدان عابدين ، وجعلت اتخيّل اشباح المارة في اثناء الظلام.

قلت : يا رب ما هذا الذي نحن فيهِ. اكثر السادات والسيدات مجتمعون الآن بقرافة الامام ، وباب الوزير ، وزين العابدين ، والعفيفي ، والمجاورين ، وغيرها[٦]. محتشدون حول مقابر علت مبانيها ، وحسنت « تراكيبها ». عليها انواع الثريات تبهر الانظار. منثور فوقها الريحان والخُوص[٧]. يفرقون التمر وغيرهُ من الفواكهِ ، « والشريك » ، على الفقراء. يتباكون ويتضاحكون. بين ايديهم الخدم يطوفون عليهم بما لذّ وطاب من طعام وقهوة وعندهم المترنمون من الحفاظ يرتلون « سورة يوسف » حتى مطلع الفجر. هذا دأبهم في عيد الفطر ، وفي عيد الاضاحي كل عام. ثم يأتي الصباح فتجري دماء الاغنام كالانهار.

لا ادري حكم الاضاحي فيما يرجع الى الدين ، فلا اتعرض لهُ بشيء ، مجانبةً للشطط. ولكن ما هذا الاسراف ؟ ألنا ثأر عند الغنم فنثأر ، ام الغنم كثيرة فنريد ان تقلّ ؟ ما روى لنا احد المؤرخين ان جدّ الغنم نطح

---

٦) هذه اسماء مقابر في مصر ٧) الخُوص : ورق النخل.

ابانا آدم، فنجعل عداءنا محمولًا على هذا السبب.

اذا قلنا ان مليونين، من الاثني عشر مليوناً من اهل هـذا القطر، يذبح كل واحد منهم كبشاً ثمنهُ جنيه، كان مجموع ما ينفق على الاضاحي مليوني جنيه كل عام، اي عشرين مليوناً كل عشرة اعوام، وأربعين مليوناً كل عشرين عاماً فاذا رضينا ان نحسب ما يُنفق على القرافات[٨] مليونين ايضاً تضاعف مقدار ما ينفق، فكان ثمانين مليوناً كل عشرين عاماً. هذا مبلغ لو يُجاد بهِ في زينة البلد، لباتت اعمدة مصابيح الغاز التي في طرقاتها من الفضة ولو بُذل في تعليم الابناء، لصاروا كالانبياء. ولو بذر في الارض لنبتت السنابل ذهباً. ولو أُنفق على الفقراء لاصبح السائلون يشترون ملابسهم من «ريبو»[٩]، ويفطرون على الشكولاتة، ولا يتغذّون الّا بألسنة البلابل مطبوخةً في جفان من البلاتين.

شاعر مصر، حافظ ابراهيم، لا يكسب كل شهر عشرة جنيهات. وشاعر آخر[١٠] ثانيهِ حاول الانتحار، ولكن لم يجد سلاحاً يعجبهُ. وكثير من الفضلاء يعيشون على الهواء، وليس لهم في ثمانين مليوناً من الجنيهات نصيب.

اما كان يرضى حافظ بأن يكون لهُ مثل الراتب الذي يتقاضاهُ قائد جيش، فيقول مفتخرًا:

أجل! هـذه اعلامهُ ومواكبهُ! هنيئاً لهم فليسحب الذيل ساحبهُ

---

٨) القَرافة : في الاصل مكان بسفح الجبل المقطّم، ثم أُطلق على المقبرة هناك. ويريد «بالقرافات» المقابر.

٩) ريبو: اسم خيّاط مشهور في مصر ١٠) يريد به محمد إمام العَبد

ام كان يأبى الشاعر الآخر ان ينال كل شهر ما ينال مدير عام ، فيتمثل بقول ابن عمه [1] في الغابرين :

ان كنتُ عبدًا فنفسي حرّة كرماً ، او اسودَ اللون ، اني ابيضُ الخُلُق

وبينا انا افكر في مثل هذه الامور ، اذا بدويّ المدافع من القلعة يؤذن بحلول العيد السعيد . قلت : « كلّ عام والناس بخير ! »

وتسابق بعد ذلك العامة الى الطرقات ؛ هذا يحمل فخذ كبش يهرول بها الى بيته . وذلك تحت ابطه جراب فيه ما جمع من القرافة . واناس لبسوا ثيابهم الجديدة ، وعوجوا طرابيشهم ، وبأيديهم العصيّ المثقّفة يلوّحون بها يمنة ويسرة . فاذا تلاقى صديقان ، بادر كل الى صاحبه يعانقهُ وكانهُ يصارعهُ . ولقد سقط الطربوش من رأس احد الناس ، وكان فرغ من معانقة صاحب لهُ ، فالتقطهُ وجعل يمسحهُ بمنديله . فلما ولّى ذلك قال صاحب الطربوش لرجل بجانبه : « الله يطيّن عيشتهُ طيّن لي طربوشي »

وما لبثت ان رأيت العربات والسيارات رائحة غادية ، فيها السراة وأبناء السراة في ثيابهم المخملة ، وعلى صدورهم الاوسمة ، ورجال الشرطة واقفون في وسط الطريق ، يحيّون من يعرفون ومن لا يعرفون . فجعلت اتصفح وجوه القوم . فاذا هي ضاحكة مستبشرة يتعالاها الوقار ، ويبدو على صفحاتها السرور . قلت ذُبحت الاضاحي وقسمت لحومها على متنازعيها ومتجاذبيها ؛ وظلم بنو آدم ، في يوم فرحهم ، مليوني روح في قطر واحد ، فما ظنك بغيره !

(الصحائف السود)

---

(١) ابن عمه : اراد به عنترة بن شدّاد ، وسمّاه ابن عمه لان كليهما اسود اللون

القسم الثالث

الادبيات

كيف يموت الادباء في الشرق !

بلغ من بغضي للشعر ان صرت أعرض عن سوانح معانيه في لوامع قوافيه . القاعد بالحدود[1] عن منازل الشرف ، المتواكل بالعزمات[2] عن بلوغ نهايات الأَرب . احدى فتن الخيال ، تجري بها البدائه فتتلقاها مسامعٌ بالقبول ، وتتلقاها مسامع بالملل . أبعدْ به وبطلابه !

يتهادى امراء الذهب بين « شولر »[3] وبين « سبلنددبار » ، تساقط اعطافهم الجنيهات ، ويطوفون حول معاهد الصبوة في عواصم الغرب من «منتِ كارلو» الى «منت كارلو»[3] . ثم يأوون الى بيوت كثرت فيها الديكة والحمائم . ثم يصبحون في لزباتهم[4] يهبون المال في دعاوي ومخاصمات : فطلاق ، وزواج ، وميراث ، وشركة ، يتخلل ذلك كله لعب الورق ، واستشارة الوكيل ، وادلال الكاتب - وما ادراك ما الكاتب ! — وبيع الاطيان ، واقتراض المال . بدرات تفيض العسجد ، وتنفجر عن ذوب اللجين . والشاعر يريد ان يبيع ديوانه بقرص من الطعمية ، فلا يجد مشترياً ؛ والكاتب يعرض دفاتره مجاناً ، فلا يرى قارئاً . فسبحان الله !

---

١) الحدود : ج . الحَدّ : البأس ، المضاء

٢) العزمات : ج . العَزمة : وهي بمعنى العزيمة : عقد النية على عمل الشيء

٣) شولر ، سبلنددبار ، مونت كارلو : اسماء اماكن لهو وقمار

٤) اللزبات : ج . لَزبَة : الشدة ، الازمة .

علم من اعلام العراق[٥]. هو ابو القصائد المحبّرة، والقوافي المحكمة نزيل بمصر. مقيم في دار حزنه، يعالج ايامه، ويعاني شدائدها. وليس بمصر من يقول له: «اين اصبحت ايها الاديب العظيم؟» احمد مفتاح، رجل البلاغة، يموت ويُدفن، ولم تكتب خبر وفاته جريدة من الجرائد، فيما علمت. ومحمد امام العبد، وهو شاعر مجيد، يوسّد بالامس التراب، ولا يتقدّم احد ليقيم له ليالي مأتمه. وفي بلاد الغرب يصنعون التماثيل للشعراء؛ ويسمّون باسمائهم الشوارع والدوارع؛ ويجعلون لميلادهم ولموتهم اياماً، في كل سنة، هي بمنزلة ايام الاعياد. ويقولون بمصر: «الدستور، والجلاء والمؤتمر.» وتكتب الجرائد: «ليحيَ! وليسقط!» من يحيي ومن يسقط ايها المساكين؟

لكل امرئ في هذه الامة موضع عِزّه. والناس في درجاتهم متقاربون. وليس رجل يُنكره معارفه، ويتجافاه اقرب اقاربه، الّا الاديب. فهو، اذا برّز على اقرانه، حسدوه؛ وان اقصر عنهم، حقروه؛ وان ولج جمعاً، جالت فيه ابصار المستهزئين. ولله في خلقه اناس يفخرون بملابسهم، وليست بصنع ايديهم، ولا انسجتها من نسجهم، ولا اثمانها من كسبهم ولا زينتها تجمل ما قبح من اشكالهم. اولئك يطاؤون الهامات، ويذلون الرقاب، ويتهادون في كل مزدحم تهادي الكواعب الرُود[٦] في الوشي والبرود. طواويس الرجال يقضون طوال الاعوام في ديوان الحياة، ثم يخرجون منه كما تخرج الانعام من تحت السقائف. لا

---

٥) يريد به جميل صدقي الزهاوي.

٦) الرُود: ج. الرائدة: امرأة رائدة: طوّافة في بيوت جاراتها.

متزودين ، ولا مستخلفين . الى حيث القت رحلها . . .

اعرف اناساً كانوا وضعوا للديكة اسماء مثل عنترة ، وعبد هياف[٧] ، وابي زيد[٨] ، وهم لا يعرفون من اسماء ملوك اوروبا خمسة . واعرف غيرهم كانوا يتعلمون من انواع الحمام كالهزاز ، والعنبري ، والغزاري ، ما لو علموا بقدره من المفردات لفاقوا علماء اللغة . وفيهم من اذا نظر توقيعه ظنه توقيع غيره . هؤلاء تمرّ بهم الخلائق كما تمرّ بهم صور السينماتوغراف . فهم يرون ولكن لا يدركون . فخارهم أبهة ولائمهم ؛ وأن يقال : فلان انفق على وليمته كذا من الجنيهات . وحلاهم ثيابهم ، بها يتنافسون اذا جمعتهم المجامع . يقول قائلهم : انا فصّلت ملابسي هذه عند « كولاكوت » فيساجله الآخر قائلاً : وانا فصلت ثيابي هذه عند « ريبو » . اسمعي يا امم الشرق ! واعجبي يا امم الغرب ! وميدي يا رواسي الارض واعلامها ! وغيضي يا بحارها ويا انهارها ! عندي كثير من هذه الاحاديث ، وما سيأتي اجلب للعبرات ، وابقى للحسرات . منك الصبر ، ومني الشكاة !

ننظر الى الكتاب المطبوع باحدى اللغات الاجنبية ، فنرى مكتوباً على جلده : الطبعة العشرون ، والطبعة الخمسون ، واكثر من ذلك . وقد يكون عدد نسخ الكتاب في الطبعة الواحدة عشرة آلاف على الاقل . وليس في الشرق كتاب طبع مرتين الا نادراً ، او ما كان متضمناً للمجون[٩] . وجرائدنا ياكل مشتركوها اثمان اشتراكهم فيها ، ويكتفي قراؤها بنسخ ياخذونها من المشتركين ، او يقرأونها في القهوات . وقد يبالغ

---

٧) عبد هياف : اسم احد الابطال في قصة عنتر .

٨) ابو زيد : الهلالي : اسم بطل القصة المعروفة

٩) المُجون : عدم المبالاة قولًا وفعلًا .

في الغرابة بعضهم ، فيردّ الجريدة مكتوب عليها « مرفوضة » بعد ان يكون قرأها اشهراً واياماً . واغرب منهم من جاءته جريدة « الجامعة العثمانية » ، وهي جريدة تنشرها « الجامعة العثمانية » في بيروت ، وتعطيها من دون ثمن ، ويكتب على غلافها مجاناً . فرد الرجل الجريدة ، بعد ان كتب على غلافها بالعربية والفرنساوية : « مرفوضة » . رفض الفضل ، ورفض الكرامة . لا طال ذنب زمانه . ولم يخجله كرم الذين احسنوا بها عليه احساناً لم يقع على مستحقه . ومثل هؤلاء المخلوقات كثير بيننا ، ولا فخر !

يموت ادباؤنا ، وتطفأ انوار المعاني في عقولهم ، وتبقى بيوتهم خالية ، واجداثهم دائرة ، وليس فينا من تحدثهُ نفسهُ بأن ينقب عن آثارهم ، وينشر للامّة ما طوي من معارفهم ، اقراراً بفضلهم ، وتخليداً لذكرهم ، واستفادة من آثار قرائحهم . ونحاول بعد ذلك ان نجاري الامم، او ان نشبه عباد الله . ما اكبر جهلنا باقدارنا ! وما ابعدنا عن مواضع الانصاف !

لا اديب العراق اجدته فرائده . ولا الاستاذ مفتاح هنأته بلاغته . ولا امام العبد اغناهُ شعره . وان نسخة من « قصة القاضي والحرامي » او « قصة دليلة المحتالة » او « قصة هف طلع النهار » لأحبّ الى عامتنا ، واشهى الى خاصتنا ، من درر هؤلاء العظماء وجواهرهم ؛ وادعى للشجون، ثم ابعث للطرب ، من قصائدهم وفصولهم . سقاهم الله ! رعاهم الله ! عاشوا مظلومين ، وماتوا مظلومين . واودعت بطون المقابر كنوزاً يتباهى بامثالها ملوك الارض . يروى ان بعض الانكليز يقول : لو خُيّرنا بين ان نخسر الهند كلّها او نخسر شكسبير ، لاخترنا خسارتنا للهند ، ولأبقينا شاعرنا

عوضاً عنها . ونحن ماذا نقول ! نقول : لتحيي الديكة والحمائم ! ام نصيح : ليحيَ الدستور .

انا لنطمع اليوم في ان ننال ما لا يُتاح لنا الا بعد خمسين عاماً . فمثلنا مثل جماعة من العميان قيل انهم ركبوا احد المعابر (القوارب) ليعبروا النيل . فقال قائلهم : « هل لكم في الخروج من المركب من غير ان تدفعوا اجرًا ؟ » قالوا : « بلى ! » قال : « اذن فاسمعوا لما اقول : اذا قارب المعبر الشاطئ صاح النوتي : « فلّق » . فثبوا هنالك وثبة رجل واحد ، وتفرقوا هرباً واعلموا انهُ لا يترك معبره ويعدو وراءكم . » فقبلوا المشورة . وكان النوتي يسمع المؤامرة ، وهم لا يشعرون . فلما توسّط النهر صاح : « فلّق » . فوثب العميان ، فوقعوا في البحر وغرقوا . واني لاخشى ان ينادينا الغرور نداء النوتي ، فنغرق غرق العميان .

الامة في حاجة الى نوابغها ونوابغها غرباء بينها . والصوت الارنّ[10] ، والقول المسموع ، ما يهتف بهِ قوم صمتت البابهم ، ونطقت ألسنتهم . هم المسيطرون وهم الزعماء .

حسبُ الاديب في الشرق نعوتاً تُكال له كيلَ الحشَف[11] . فهو الاديب الفاضل ، والشاعر البليغ ، والكاتب البارع ، واللوذعي ، والالمعي ، وغير ذلك . . . وليت هذهِ النعوت تُجبى لمن تصدق فيه . او فيمن تكاد تصدق فيهِ . ولكنهُ مشارك فيها مشاركة الغَبن[12] . أهل البلدة كلهم ادباء ، فضلاء ، بلغاء ، فصحاء ، ما سلم من ذلك ملك ولا سوقة . واظن

---

١٠) الارنّ : العالي   ١١) الحَشَف : اردأ التمر

١٢) الغبن : الخديعة في البيع والشراء .

هذه هي المساواة التي يطلبها مجانين الدستور ، لا المساواة في الحقوق التي يثني عليها اهل الانصاف .

ألا من مبلغ عني كل اديب في الشرق انهُ اديب ، وانهُ فاضل ، وانه لوذعي ، وانهُ المعي ، وانهُ فصيح ، وانهُ بليغ ، وانهُ عند الناس وجودهُ مثل عدمهِ . وانه أهون على امراء الذهب من ديك من ديكة الهند ، او من حمامة من حمائم اليمن .

كنت ذات يوم راجعاً من دار البريد ، وفي يدي سيكارة ، هي أخرى اخواتها . فمرّ بجانبي رجل يسرع في مشيتهِ ، فاستطارها من يدي حتى وقعت على الارض . وكان اليوم شديد الهاجرة لافح الحر . فلما توسطت الشارع ، رأيت عربة نظيفة ، فيها رجل من رعاع القوم ، وامامه اثنان من الاوز . ثلاث رفقة في خير عربة ، يقودها جوادان مطهّمان . فرفعت طرفي الى السماء ، وقلت : « يا رب ! تلهمني الشعر ، وتجري يراعي بما يستطيع من النثر ، وتجعل عبادك يدعونني بالاديب ، ان صدقاً وان كذباً . ثم ارى اني احقر من الاوزّ في هذا الشرق !!! » ثم انصرفت صابراً .

هذا ميدان واسع . يتعب الجائل في ارجائهِ . ولولا حقوق للادب واهله ما سطرتها . ثلاثة اخوان : كروب ، ودفينان . اما الرثاء فبعض ما يجب ولن يفوتني ما استطعت منهُ . واما النحيب فاني سوف انتحب . فمن لي بمن يساجلني الدمع ، ويشاركني في الشكاية . اما انا لمظلومون .

(التجاريب)

القسم الرابع

الشخصيات

في السجن

ما ذكر امرؤ عهده بنكبة حلّت ساحته، وخطر شهد هوله، الّا تجدّدت فيهِ جزعاته وفزعاته، وعادته آلام كان استشعر بها في إبانات نزول الخطب، واشتداد الويل. الان يخيّل لي اني بسجن الاستبداد، واني اعاني ما خلتني فرغت من معاناته ولولا اني قليل الاعتداد بما تأتي به الاوهام، وما ينجاب عنه دخان الشك، اطال همّي، وساء عيشي. وما ذاك الذي اذكره رجفان في الرُّوع[1]، ولا خور في النفس، ولكنه اثر تستبقيه شدائد الايام. لكل كارثة منه جانب، ولكل فادحة منه سهم. على اني سأزجر فؤادي عن ذكر ما مضى، وأنقطع من تلك العظائم، إبقاء لرونق امل اتلقى به هذا العيش الجديد الذي لبسنا لبوسه. فان تجرِ الاقدار طوعَ ما اردنا من الخير، فذلك نعمَ العوض، وان تحلْ حوائل الايام دون استتمام رغباتنا واستقرار اماننا، فان في لذَّة الادّكار معواناً على التأسي. سبحان من جعلني راوياً، بعد ان جعلني شاهداً! وسبحان من اخلى تلك المعاقل[2] بعد ان ظنّنا، حقبةً من الدهر، ان لن يستفتح الزمان مغاليقها، وان لن يذلّ جبابرتها.

---

١) الرُّوع : القلب

٢) تلك المعاقل : يريد بها معاقل الظلم والاستبداد

لكل ذي حياة يوم هو اشهر ايامه وما في ايامي مثل اليوم السادس من شهر يناير[٣]، ولا في اعوامي عام مثل العام الثاني من التسعمائة والالف. طلعت عليَّ طلائع الويل من يومه الثاني، وما تلاه يوم الا استجدَّ لي فيه شرّ.

أهاب بي[٤] سحرةً داعٍ من الوجد فاسمع. قلت ما هذا الذي استفزّني من كراي، وأنهضني من رقدتي. وتقدَّمت الى احدى الكوى، وجعلت أنظر منها الى الحديقة فاذا الوقت صحوٌ، والروض نديٌّ، والشجر موقف المتن، لا تلويه نسائم، والغصون مجرَّدة من غلائل الاوراق لا تتأوّد ولا تتعذَّر. واذا عصافير تتطاير من أماليد الى أماليد، برحت وكناتها، وودعت فراخها، فهي تتحاوم لتلتقط حبَّات سقطت من يد الانسان، في غفوة من حرصهِ. والماء كالماوية[٥] جلتها كفّ الصناع. تتجعد صفحته كلما عبَّت فيهِ العصافير بمناقيرها، ثم يخفّ تجعّدها، ثم يعاودها استواؤها وعلى متون الغصون قطرات من الطلّ هي، ولا شك، بقايا دموع الطبيعة، حين بكت بنيها. فهاج المشهد بلابلي، وأثار أشجاني، وكدت أصيح طرباً. وقلت: ندع مثل هذا ونأوي الى الاجداث!!! ولكنني أشفقت على نفسي ان يطغيها حرّ خافيها. فالتفت ورائي واذا بنيَّتي واخوها نائمان، يرتفع صدراهما وينحطّان. فصبحت كلًّا بلثمة على جبينه وثب لها فؤادي، وبدرت من عينيَّ بوادر شؤونهما[٦]. فقلت: دموع بدموع، ايتها الطبيعة، والبادئ اظلم. ثم أقمت اترقَّب ان يتقادم العهد بالنهار، علّي اجد سبيلًا كانت

---

٣) يناير : كانون الثاني
٤) أهاب بي : ناداني
٥) الماوية : المرآة
٦) الشؤون : الدموع

اشتبهت مسالكها ، او أحدث رأياً ادرع بهِ في لقاء الخطر المنتظر[٧] . غير انني لم ابرح البيت يومي ذلك حتى المساء . فلما اصبت عشائي ، خرجت انشد الطبيبة لتصف لامرأتي دواء ، وكانت اشتدّت عليها اوجاعها[٨]

فركبت الترامواي متوجهاً الى بيرا (بك اوغلي) . ولما هممت بالنزول ، تبعني رجل لم ألقَ له بالاً . وفي بيرا مطعم يقال له مطعم طوقاتليان . يعرفهُ كل من زار فروق في عمره مرّة . فما بلغت مكانه الّا اعترضني رجل من الشرطة قائلاً : الى اين تريد ؟

قلت : وما يعنيك انت من ذلك ؟

— اني اسألك لاني من رجال الشرطة ، وعليك ان تجيبني

— انا ذاهب لادعو الطبيبة الى امرأتي

— ما أظنك صادقاً . ولا بد من مضيّك معي الى متصرف بيرا

— لماذا ؟

— كذا أردت وكذا ينبغي ان يكون

— وان انا أبيت المضيّ معك ، وقلت لك : ما انا بالقاتل ، ولا بالسارق ، ولا بالمعربد ، وليس لي عند المتصرف شغل يدعوني اليه . فما اراك تفعل ؟

— آخذ بطوقك ، وأجرّك على وجهك ، حتى انتهي بك الى المتصرف

— أنت لا تعرف من تخاطب ، ولا تعقل ما تخاطب بهِ الناس . خذ هذه البطاقة واطلبني في داري او في مكان خدمتي

---

٧) الخطر المنتظر : ما كان ينتظره الكاتب من احكام عبد الحميد بعد ان فتّش رجال الضابطة بيته واخذوا كثيراً من اوراقه .

٨) كانت امرأته نفساء .

— لا حاجة بي الى بطاقتك . وما اعترضتك جهلًا بك . ولا بد من المضيّ معي. وما اتم الرجل كلامه الّا ارمى بنفسهِ عليّ ، وحاول ان يأخذني من خنّاقي. فأهويت على يده بعصا كانت معي فشلّت، وعاجلتهُ بضربات كندف القطن ، واخذت منهُ سيفهُ فألقيتهُ على الارض، ثم جعلت ادفع الرجل بقدميّ واستطرده امامي صائحًا بهِ : سر ا الآن انا اذهب بك الى متصرّفك.

وتكاثر رجال الشرطة فقبضوا على ولي الدين وساقوه الى المتصرف، ثم الى السجن.

في المنفى

وجع اضراسه

وبعد ان اقام مدة في سجن الاستانة ، سيق منفيًا الى سيواس ، فدخلها في ١٤ شباط بعد عذاب طويل على الطريق. ثم استقدم اهله ، واستأجر دارًا رطبة المناخ مظلمة ، فسببت له المًا في اضراسه. قال :

فاستشعرت وجعاً في اسناني بدأ خفيفاً ، ثم اشتدّ حتى كدت اجنّ به جنوناً. قلت : وهذا همّ جديد. كأن ما كابدناه لم يكن كافياً ، فزادنا المرض لتتم المصائب . فاخذت قليلًا من الكونياك وجعلت اتمضمض به تسكيناً لوجعي ، فما زادنا الّا شرًّا. وبقيت لياتي تلك واقفاً او ماشياً او قاعدًا او مضطجعاً الى ان اصبحت . فبادرت الى اجزاخانة تحت المنزل اسأل صاحبها دواء يسكن وجعي . فأخذ يجرّب عقاقيره في غير طائل . فلما تجاوزت الشدّة ذرع الصبر ، طلبت اليه ان يعطيني مقدارًا من المورفين، وحقنة احقنه بها تحت اللثة. فامتنع اولًا ، ثم اجابني راضياً. فحقنت الدواء وسكن الوجع ، واستلقيت سكران لا احسن الكلام.

هذه سكرة ما تجشّمت لها سرى ، ولا طرقت من اجلها حانة ، ولا اجلت في طلابها كأسا . اتت عفوا حين اشتدّت الحاجة اليها . وانها لسكرة مات بحسرتها شيخ المعرّة [1] اذ قال :

تمنّيت ان الخمر حلّت لنشوة تجهّلني كيف اطمأنت بي الحالُ
فأذهل اني بالعراق ، على شفا رزيء الاماني ، لا انيس ، ولا مالُ

اضطجعت في ناحية من الغرفة ، واقمت استسمع شكوى من قعدوا حولي . السيدتان في نحيب ، والطفلان في بكاء . ولدينا زنجية كانت تشبثت بالسيدتين ان لا تدعاها . وهي امرأة مثل زجاجة الحبر ، اخذت تتعهدني بالقهوة . واني لساكت ساكن . تقع تلك الاصوات على اذنيّ ، وكأنها تأتيني من جوف بئر . اسمعها ولا افهمها . وكنت اودّ ان لا افهمها . فتأمل صحبي في وجهي ، فرأوا في الخد الايسر ورماً يتزايد على توالي الساعات . وما دنا المساء ، الّا وانا ذو وجهين . اشهد الله ما كنت كذلك فيما سلف من عمري . فلما تكامل الليل خفّ فعل المورفين واعتادني الوجع . فبادرته بحقنة ازالته وانامتني .

ومنع الوالي الصيدليا ـ ان تبيعه المورفين ، فرجع الى المنزل قال :

فلما عاودت المنزل عمدت الى سلك من الصلب [2] لففته على احدى ثناياي ، وما زلت اجذبها حتى اقتلعتها من اصلها ، واقتلعت معها قطعة من عظم الفكّ الاعلى . وقضيت ليالي ما احسبها مرّت على غيري . ثم عملت عملية جراحية ، فلم تنجح ، بل ضاعفت آلامي وزادتني وجداً على وجد

---

١) شيخ المعرّة : هو ابو العلاء المعرّي
٢) الصلب : الفولاذ

كنت دعوت طبيب الاسنان ، وسألته ان يتولّى تلك العملية . فأخرج من جيبه سكينة مطواة غطّاها الصدا حتى لا يتبين الناظر نصلها . فتناولتها بيدي ، وشممتها ، فاذا بها رائحة الخيار . فنظرت في وجه الرجل وقلت :

— ألم تختر موضعاً تصنع فيه السلطة الّا بين فكيّ . فمسحها الرجل على سرواله وقال : هي نظيفة

— لا والله . لن ادعك تمسّ فمي ، او تدعني اطهر هذه السكين

— شأنك وما تريد

فاستحضرت قليلًا من الكحول اضرمت جانباً منه احرقت به النصل ، ثم غسلته بما بقي ، وامرت الرجل ان يغسل يديه امامي ، ففعل . ثم اسلمتهُ فكّي وجلست بين يديه . فأسند رأسي على ركبتيهِ ، وخطّ على اللثة العليا بسكينهِ خطاً استشعرت بهِ وهي تحفر في عظامي . فوثبت واقفاً دامي الثغر ، لا تحملني قدماي . واشرت الى الطبيب قائلًا : قم عني . لا عدت لي بعدها . فخرج من عندي الرجل متعثراً .

ورأيت بعد ذلك ان انتقــل من الدار التي كانت مأوى احزاني . فاكتريت بيتاً رحباً خالص الهواء ، حسن المنظر ، وتحوّلت مع اهلي اليه . وهناك جاءني ترجمان الولاية من قبل الوالي ، يخبرني بان قــد جعل مرتبي خمسة عشر جنيهاً عثمانياً في الشهر . قلت : لا ضير سنصبر كرهاً اذا لم نصبر طوعاً

(المعلوم والمجهول)



الروائع

سلسلة ابحاث في الادب، ومنتخبات من اشهر اعلامه

السلسلة الثالثة

ظهرت كلها

في النثر

٢٢ — المعلّم بطرس البستاني : خطابان : تعليم النساء — آداب العرب
٢٣ — ولي الدين يكن : فصول منتخبة

في الشعر

٢١ — الشيخ ناصيف اليازجي : منتخبات شعرية
٢٤ — طرفة ولبيد : المعلقتان
٢٥ — زهير بن ابي سلمى : منتخبات شعرية
٢٦ — عمرو بن كلثوم، والحرث بن حلزة : المعلقتان
٢٧ عنترة : منتخبات شعرية
٢٨ — الخنساء : منتخبات شعرية
٢٩ — الحطيئة : منتخبات شعرية
٣٠ — النابغة : منتخبات شعرية

وسنبتدئ قريباً بسلسلة رابعة